عرس بغل

عرس بغل–رواية

الطاهر وطار-مؤلف

الطاهر وطار

عرس بغل

رواية

الإهداء

إلى إحسان طبري عضو المكتب السياسي لحزب توده ، المنفي عن وطنه طيلة سبع وعشرين سنة.

أقرأ في كفك يا رفيق: جبالا من نار حمراء، وإيوانا أسود يتآكل. وأراك على مهر، تشق إيران، وتضيئه بنجمة في لون النار..

ط.و

مراحل الرحلة

عندما اجتاز الحاج كيان، سياج الصبار المحيط بالمقبرة، ووجد نفسه، يتسلل بين القبور، في دربه المعتاد، تساءل:

- ترى من أكون اليوم. المتنبي، أو حمدان قرمط، أو زكرويه الدنداني، أو أحد خلفاء بني عباس أو أحد غلمانهم أو قوادهم؟

وقبل أن ينزل إلى خلوته، وقف كعادته يدرس الوضع:

السماء صاحية ولا مبرر لتكدرها كامل اليوم على ما يبدو. ريح شمالية خفيفة تلاطف جو الخريف الثقيل. الخُقّ المربع على وضعه، التينة في قعره، تنكمش على نفسها بين الصخرتين العملاقتين. القبور المتراصة قانعة بحجمها. المقبرة المهجورة لا تجد ما تسكت به ذبابها الضائع، سوى حمار هرم أجرب سطيح في مكانه عند السياج منذ أسابيع.

أنزل سلته بخيط إلى القعر، وراح يستعين بأغصان التينة الهرمة على النزول، مؤكدا لنفسه أن الحذر مطلوب، وأن النهار لا يزال طويلا.

تناول سلته، بعد أن لف الخيط وربطه بالعروة. واتجه نحو الصخرتين. انحنى وأقحم نفسه بينهما، وسحب السلة إليه، وراح يفرغها. بسط المنديل الأصفر، ثم أخرج علبة حلوى الترك، وقارورة العسل، وغليون الحشيش الطويل، وعلبة أخرى. تحوي تحت طبقة حلوى الترك، كتلة متراصة من الحشيش.

فتح العلبتين والقارورة، وتناول الغليون، وراح يفحصه بدقة، كأنما يراه للمرة الأولى.

- الخيط. الطريق. الجسر. السلطة التي تمنحني الهوية.

قال، ثم قبله، وشحنه بالمادة وأوقد النار، وراح يمتص في ظمأ الرضيع.

راحت المسافة بين قعر الخق وبين حافات فمه الكبير، تتغير شيئا فشيئا... بدت ببعدها الطبيعي: حوالي المترين أو يزيد، ثم تأخر الفم، بعْد النفَس الأول عدة أمتار. بعد النفَس الثالث

تأخر القعر. بعد النفس الخامس تأخرت التينة والصخرتان، والحاج كيان وسلته. بعد ذلك، راحت كل المسافات تتباعد، وانفتحت في رأسه وفي قلبه، هوتان، لا أول ولا آخر لهما. وفي الحين الذي شعر فيه بالتلاشي والذوبان، شعر بأنه يحتل كل ما هنالك من مكان أو زمان.

ترى من أكون اليوم؟ المتنبي؟ حمدان قرمط؟ زكرويه الدنداني؟ المعتصم؟ المنتصر؟ المعتز بالله؟ موسى بن بغا؟

وما يهم؟

ليس في الجبة سواي. سوى رحى في حجم الأرض تطحن، والألم يقطر.

بدأت المرحلة الأولى من الرحلة.

- هؤلاء الموتى المساكين، لم يعد أحد يذكرهم. يا لهم من غرباء. كانوا هنا، يسعون ويلهون ويأملون. تساقطوا كالذباب واحدا إثر آخر، أتوا بهم قطع لحم باردة، دفنوها في الأرض، وولّوا هاربين، تاركين إياها للدود.

المساكين. المساكين.

سقطت دمعتان من عينيه. تناول ذرات من حلوى الترك وضعها على لسانه، واستغرق في الامتصاص.

برزت فتاة تلتحف ثوبا ورديا من خلف الضباب. كانت رائعة الجمال. ظلت واقفة لحظات، ثم تبسّمت. تلاشى ثوبها. بانت كتمثال من المرمر.

كانت ذرات الحلوى تطلق لذة غريبة، وكان لسانه يتنقل ببطء من اليمين إلى الشمال، بينما ظل بصره عالقا بالفتاة العارية أمامه. كانت في السابعة عشرة. كل شيء فيها يشع بالحيوية والعنفوان.

- هكذا جئت. هكذا عدت.

- من أين جئت، وإلى أين عدت؟

تساءل فلم تجبه. قهقهت فجأة. قهقه بدوره فجأة. ظل لحظات طويلة، يقهقه. كان مغلوبا.

لقد انفجر بركان ضحك في صدره. حاول أن يشير إلى الفتاة بالاقتراب، إلا أن الضحك لم يعطه الفرصة. أومأ برأسه، إلا أن الإيماءة لم يكن لها أي معنى. قهرها الضحك.

لم يدر كيف أغمض عينيه، لينقطع الضحك فجأة. استلقى في سرير مفروش بالحرير. وثبـت الفتاة إلى جانبه. وضعت فمها في فمه، وراحت تطلق لذة غريبـة، اقتحمـت رأسـه وصـدره، وشرايينه، وأطلقت العِنان لاتصال أرجواني بينهما.

فتح عينيه. كان لسانه يلعق العسل من إصبعه، كانت الفتاة في وضعها لا تزال.

- هكذا جاءت. هكذا عادت. المسكينة. جاءت وعادت.

من أين وإلى أين. لا يهم. ليس هناك سواي. طاحونة عرضـها السـماء والأرض، تطحـن القلوب. لو أنني أتمكن من دعوتها إلى الجلوس معي.

حاول أن يرفع يده فلم يفلح. حاول أن ينطق فتعذر عليه. حاول أن يغمزها فجمدت عيناه.

- المسكينة كما جاءت عادت. شمعة اتقدت وانطفأت ودفنت. أودعوها هنا، وولوا. هكذا.

تطاير شعر الفتاة. برزت الديدان من كل فتحة في بدنها، انهمرت الدموع فجأة مـن عينيـه. استغرق في بكاء صامت في حين راح الجسد المرمي يتآكل. يتحول إلى ديدان بيضـاء وزرقـاء وحمراء.

- هكذا صارت. هكذا صاروا. هكذا نصير. هذا كل ما هنالك.

اختفت الديدان. لم يبق سوى هيكل عظمها يقف منتصبا.

بدأت المرحلة الثانية من الرحلة.

الهيكل العظمي يتوالد: واحد، عشرة، مائة، ألف.

العالم كله هياكل منتصبة، متماسكة بلا شيء. خذ مكانك بين الهياكل، وقم بـدورك. انهـض. انهض. تعر. تفسخ، شعرك ينسل. جمجمة رأسك تغلي بالديدان. الديدان تأكل أذنيك وعينيك وأنفك ووجنتيك. الديدان تنزع عنك اللحم.

- لا. لا تصر مثلنا. نريدك كما أنت.

قالت ملايين الأصوات الصادرة عن الهياكل، فلم يجب.

لماذا الإجابة، حين لا تكون قاطعة. لو أن الديدان هي التي تجيب. لو أن لديها ما تقوله.

بسرعة، انضم الهيكل العظمي إلى إخوانه. ارتفعت قرقرة كبيرة. الهياكل تتحرك. إنها ترقص. ارقص معها. لابد من ذلك. رقصة الهياكل لا تكون إلا جنونية، موسـيقى الفـراغ لا تكـون إلا

صاخبة. انطلق انطلق. إنها تتناطح. افعل مثلها، انطح من صادفك. انطح بقوة، لاشـيء يؤلمـك، الديدان انتزعت الألم. اصفع باليدين كل من تستطيع. أعط خدك، للصفع، إنهم يفعلون ذلـك. هـذا العالم يتحرك بلا قوانين، أو دوافع، أو رغائب، فانطلق. انطلق في الاستسلام، وليرتفع الصـخب ولتعل القرقرة. الهياكل العظمية تطير. إنها ترتفع إلى عنان السماء. السماء تمتلئ بالهياكل القادمة من كل مكان، زوابع زوابع، كالنحل أو الجراد. طر بدورك طر. إنك معها. واحد منها. ولا غاية ولا قانون. الفضاء امتلأ. لا مجال هنالك للحركة أو للطيران، تراص معها. انتظر ما سيكون. إنها تتصل ببعضها. الأرجل تتصل. الرجل اليمنى تتحرر منك وتنضم إلى هيكل الرجـل الضـخمة. اليسرى تلتحق بها. الفخذان يلتحقان. العجز أيضا، الصدر بدوره، العنق، الرأس.

الهيكل الجبار يتكون.

يملأ العالم كله. كل الفضاء. هذا هو الهيكل المنتظر، ما أسعد أن تكون منه. أنت ذرة لا ترى بالمجهر، في هذا الهيكل الضخم الذي يسد كل فراغ وأنت كل هذا الهيكـل. مـا دمـت لا تحـدد موضعه منك، فأنت هو، وهو أنت. أنت الجبة، والجبة أنت، وما دمت لا تتحرر منه، فأنت لاشيء بالنسبة إليه.

إن الدور يعاد. يعاد بأشكال مختلفة، وهذا عزاء.

الهيكل يحاول أن يتحرك. التصميم يسري فيه. لا مجال.

لا فضاء. الحركة متعذرة، التصميم يسري في كل الذرات. يصل إليك، أنت بدورك تـود لـو تتحرك. الذرات تحاصرك. الفضاء يحاصر كل شيء. هذا هو القانون الوحيد.

لا مجال. لا مجال.

الجمجمة ترتفع. الفضاء يتحول إلى رحى. الهيكل الضخم في رحى. لا يقاوم. لا يهمه. أنـت أيضا لا تقاوم. لا يهمك شيء، لا قانون ولا غاية. ليس هناك سوى جمجمـة فـي الرحـى. إنـه يتلاشى، إننا نتلاشى. الجسم الصلب يتحول إلى ذرات. الذرات تملأ الفضاء... فكا الرحى يدوران متعاكسين بسرعة. الذرات سعيدة. أنت أيضا سعيد. الجعجعة تهدأ، الذرات تسبح متداخلة، الهياكل الصغيرة تتشكل. هذه رجلك اليمنى، هذه اليسرى. هذان فخذاك، هذا عجزك، هذا عمودك الفقري، هذا صدرك، هذا عنقك، هذا رأسك.

أنت هيكل عظمي بين الهياكل، في جب عظيم وسط المقبرة المهجورة.

اللحم يعود إليك شيئا فشيئا. الهياكل الأخرى تختفي واحدا إثر آخر.

المرحلة الثالثة تبتدئ.

حشا الغليون، وأضرم فيه النار، ثم تناول كمية من الحشيش، مزجها بالعسل ووضعها تحت لسانه.

الدوي بدأ بعيدا ثم أخذ يقترب شيئا فشيئا. إنه هو. عزرائيل. يتفقد زبائنه. إنه غاضب اليوم أكثر مما يجب على ما يبدو. ضربات عصاه السريعة تهتز لها الأرض. لقد طاف بجميع القبور، وهو يقترب مني الآن. سينهال علي بعد حين. هذا ظله يغطي المكان. التينة تتنحى. الصخرتان تتباعدان. لاشيء، يحول بيني وبين عصا عزرائيل.

اعتراه خوف وهلع شديدان. أغمض عينيه، وأحنى رأسه، وقبض ركبتيه وذراعيه، وراح ينتظر متوقعا الضرب من لحظة لأخرى.

- مَن هناك؟

دوى صوت عزرائيل، مالئا الفضاء. فكر أن يبادله الحديث، أن يقول له: أنا الحاج كيان. في الحين الذي أساوي كل شيء، لا أساوي شيئا إطلاقا. أنا كل ما في الجبة. الخوف يمنعه من الكلام. لسانه يأبى الحركة.

- وهل أنت ميت جديد؟

- لا، أنا لست ميتا جديدا. أنا ميت منذ الأزل. أنا مت قبل أن يخلق العالم كله. حتى قبل أن يكون هنالك موت.

فكر أن يجيب، غير أن الضرب بالعصا الغليظة انهال عليه. تناول عزرائيل رأسه، وضعها جانبا، وراح يضربها، عد حتى الألف. أعاد الرأس إلى موضعها، وراح يتناول بقية الأعضاء، عضوا، فعضوا، وعندما توقفت الضربات، وعادت الأعضاء إلى موضعها، شعر بالانعدام.

أنت جزء من الأرض، من التراب والوحل والمعادن.

لا تحس بالكينونة إلا عندما يتسلط عليك الألم.

المهم أنك تحررت. مثلما حررك الدود، حررك عزرائيل، فانطلق الآن. اقتنع بوجود العـالم. اقتنع برشاقته، وبتناسقه، كن جزءا منه. أنت أيضا رشيق متناسق. تناول ذرات من الحلوى. إلعق إصبع عسل.

آه. ما أجمل ذلك. ما أروعه.

كل شيء الآن سحري، كل شيء الآن يحتمل الشك واليقين. كائن وغير كائن. الظلال والثمار. الحرائر والغيد الأماليد والولدان المخلدون. بيادر الحشيش، ووديان العسـل. لا كـد ولا إرهـاق. السير بالنية، والطيران بالنية، والأكل بالنية، وكل شيء بمجرد النية.

يكون ولا يكون. لا يكون ويكون.

يتحول كل شيء إلى حضرة، إلى الإرادة العليا.

- أنت أيضا إرادة عليا.

بلغ الصوت إلى مسمعيه، تساءل في سره، لمن يكون هذا الصوت.

لإرادة عليا.

أتاه الجواب، فأومأ برأسه مصدقا.

- كن. كن.

- من أكون؟

فكر أن يتساءل، إلا أن مرآة كبرى وضعت أمامه، فراح يتأملها في كسل وخدر.

كانت المرحلة الرابعة من الرحلة تبتدئ.

- أبو الطيب المتنبي، أو حمدان قرمط، أو زكرويه الدنـداني أو المعتصـم أو المنتصـر أو المعتز بالله؟

- لا. كن أنت. كن أنت. فليس هناك سوى الرحى، ذات الفكين المتعاكسي الدوران، تطحـن القلوب وتفرز الألم.

- ومن أنا؟ هل أنا شيء؟ هل أستطيع أن أكون مرة أخرى.

- أنت الإرادة العليا. العليا..عليا.

أنفاس السبوت

وقفت العنابية في البهو، يداها في خصرها، رأسها مرفوع، بصرها يجول بسرعة في أبـواب الغرف في الطابقين الأول والثاني. تتفقد البنات، وهل هن على استعداد تام لاستقبال يومهن.

عندما لاحظت أن بعض البيوت مغلقة، وقدرت أن صاحباتها، لاشك، لا يزلن نائمات، هتفـت بصوت في نبرة معينة، توحي إلى البنات، بأنهن مقصودات جميعهن:

- كيف لم يظهر الحاج كيان بعد؟ الساعة العاشرة يبدو أنه لا أحد يهتم بالوقت اليـوم. مـاذا جرى يا ترى؟

- اليوم السبت. أنسيت؟

انبعث صوت من الطابق الأول، فردت العنابية حالا:

- ومن نسي أنه السبت. أتحسبينني من اللائي لا يزلن نائمات.

- أنا تعبة قليلا وهذا كل ما في الأمر. لست نائمة.

قالت إحداهن وفتحت باب غرفتها، ووقفت فيه، وهي تتثاءب وتتمطى.

- الحاج كيان لا يظهر يومي السبت والأحد.

- الحاج كيان ككبار الموظفين.

- الحاج كيان يبغض العسكر وزبائن السبت والأحد.

- أعرفن ما تقلن عن الرجل يا عاهرات.

- العفو يا لالّة الحاجة.

كانت لهجة الرد الأخير ساخرة لاذعة، ومع أن العنابية لم تتأثر بها، فقد كانت تتوقع مثل هـذا التعليق. آثرت أن تفتعل معركة صغيرة تثور خلالها ضجة كافية لبعث الحياة في جميع البيوت.

- أنت يا بنت. لازمي حدودك. اللسان الطويل للقص.إذا ما قررت أن أكسر رأسك لن ينفعك أحدا.

- من تعنين بأحد؟
- إنها تعني- خاتم الهزية- طبعا، ومن تريدينها أن تعني غير –هزيك- الجديد.
- أنا أعرف ما أقول، والفاهم يفهم.
- إذا كنت تعنين *خاتم الهزية* حقا، فقوليها صراحة. إنه مستعد لتصفية حساب جميع النـاس، ومن كانت له *حسبة* معه، يتقدم بها.
- *أنا قليلة الوالي.*

ارتفع صوت من الطابق الأول بمقطع الأغنية، وفي لهجة ساخرة، أثار القهقهات مـن جميـع البيوت وانتزع ضحكة من العنابية ذاتها، فبانت أسنانها المذهبة.

لقد اطمأنت إلى أن الحياة انبعثت في محلها. وعما قريب يتوافد العساكر، وتلاميذ الثانويـات، والمتسوقون من الضواحي والبوادي، وفي حدود الثالثة تبدأ السهرة. ينتصب المغنـي والقصـابان وسط البهو. ترتفع الألحان الظامئة، ومن حين لآخر، تبرز راقصة، تطوف بالجالسين، ثم تختطف أحدهم وتصعد به إلى الغرفة. تتناثر قوارير الجعة، وتفرغ صناديق وصناديق. تبيع ضعف البنات بدلات اتصال، بالإضافة إلى رسوم الدخول.

تبيت الليلة مزدهرة.

خاتم الهزية الذي لم يستول على الميدان إلا منذ ثلاثة أسابيع، يبدو أنه متفهم للوضع، لكن من يدري؟ حياة النفوس تقول إنها تسيطر عليه، وإنها بلغته مطالبي، خاصة عدم إثارة أي مشكل يومي السبت والأحد. لكن من يدري؟ أوه، لابد أن ينجو سبتان وأحدان في الشهرين، وفي هذا كفاية.

هذه طبيعة الشغل. من يرم الاصطياد لا يخش البلل.

طمأنت نفسها، ثم اتجهت نحو المشـرب، فاسـحة المجـال، لتعليقـات البنـات، ونكـاتهن، وأهازيجهن.

- الحاج كيان يعود صبيحة الاثنين، وكأنه شخص آخر.
- ترى أين يقضي يوميه.
- لعل بين أطفاله وزوجته؟
- وهل الحاج كيان صاحب أسرة؟

- ومن يدري؟
- لا أحد يعلم من أمره سوى أنه حج إلى كيان.
- بسبب العنابية !هأه. هأه !
- ولم تضحكين؟ كانت الرجال رجالا... وكان الحب حبا.
- لا يغرنك *خاتم الهزية* هذا. كم من هزي مر من هنا. كلهم تحطموا. لكن الحاج كيان لـ م يتحطم. لا أحد استطاع أن يمس وقاره.
- أنا قليلة الوالي .
- أحبابنا يا عيني رحنا وراحوا عنا .
- وهل تعتقدين أن الحاج كيان لا يزال يحب العنابية؟
- حام. حام. *سراق الدجاج، الريش فوق رأسه.*
- من يجهل أن الحاج كيان له معشوقة، يبيت معها كل ليلة سبت.
- أنت وحدك يمكن أن تطلعي على بعض أسراره.
- أن يبيت الحاج كيان عندي كل ليلة سبت لا يعني أنه يحبني، أو أنني أحبه.
- حام. حام.
- أنا قليلة الوالي .
- *احبابنا يا عيني. رحنا وراحوا عنا. ولا حد منا أتهنا.*
- اسمعن يا بنات. قلت لكن. دعن الرجل جانبا، وخضن في مواضيع أخرى.

ارتفع صوت العنابية من تحت، فانطلق صوت ساخر من الطابق الثاني:

- مطلقة وعينه عليها.
- أرأيت أن الحاج كيان، رغم أنه يبيت معي، فإن وجوده هنا مرتبط بالمعلمة.
- وأنت هل تحبينه؟
- من، الحاج كيان؟
- نعم.

رفعت كتفيها، ووجهت السؤال إلى أعماقها. ابتسمت وولت إلى غرفتها ترتبها.

- السلعة جاهزة؟
- ثلاثون صندوق بيرة. عشر قوارير انيزات. كالعادة. إطمأني.

تأملته، وابتسمت: في الخمسين. ربع ممتلئ. نصف شعره أشيب. عضلاته مفتولـة قويـة. لا يؤثر فيه شرب. يلقي نظرة على كل من يناوله قنينة أو كأسا، وينسحب دائما. لا تبرز إلا يداه عند الطلب، أو قبضتاه عند الحاجة. إذا ما برز من خلف المشرب، فلكي يحمل مراهقا متطفلا، غرتـه طفولته، أو سكران عبثت الجعة برأسه، يحمله من صدره، ويقذف به خارجا، كفأر ميت.

قضى عشرين سنة أشغالا شاقة، وانتهى أمره إليّ. حمود الجيدوكا هبة مـن الله. شـكرا لله على حمود الجيدوكا، وعلى الحاج كيان.

ابتسمت مرة أخرى، وقصدت جناحها في الطابق الأرضي عند المدخل الخارجي. وقفت مـع المرآة، تفحص هيأتها غير مرتاحة إلى الترتيبات الأولية، التي أجرتها على وجهها قبل أن تغـادر غرفتها.

رغم تجاوز الأربعين، لا تزالين لبوءة. عيناك الكبيرتان قاتلتان. بسمتك السحرية آسرة. لـولا بعض التجاعيد، ونتوء غير متوقع للأنف، لكنت ابنة عشرين. كم افتتن رجـال بعنقـك الطويـل، وصدرك العريض. أضيفي بعض المساحيق إلى وجهك، إلى وجنتيك وعنقك خاصة، وزيدي إلـى عينيك كحلا وأزرق. لن تعدمي، أنت أيضا، هواة ومريدين الليلة.

ليلة الأحد حبلى بالمفاجآت على كل حال، وربنا ورحمته.

سوت وضعها كما ينبغي، وخرجت إلى البهو، لتتفقد الوضع، للمرة الأخيرة، قبـل أن تسـلم بدلات الاتصال للبواب...

الأبواب كلها مفتوحة، البنات يتناولن طعامهن. بعضهن بكر إلى تعاطي الجعة، الأسطوانة في المشرب تدور بالأغنية الوهرانية:

يا المْرا روحي للدار راكي مطلقة . حمود الجيدوكا يمسح شفتيه. لاشك أنه تناول فطوره هو الآخر.

رن جرس الباب الخارجي. قطبت العنابية حاجبيها وراحت تنتظر متخوفة.

- يا فتاح يا رزاق.

انبعث صوت من الطابق الثاني، فأضاف صوت من الطابق الأول:

- *بكر تأكل الفطاير، صلى العشاء وجا.*

فتح البواب الباب، وتردد في فسح مجال الدخول للزبون، إلا أن صوت المعلمة نهره:

- الحادية عشرة. ليدخل.

كان الداخل قرويا في الثلاثين. على رأسه عمامة صفراء جديدة، وعلى بدنه بذلة زرقاء ضيقة بعض الشيء، وفي عنقه قميص أوسع منه كثيرا، تسده ربطة صارخة اللون، ينتعل حذاء أبيض. أسمر، قصير الأنف، ضيق العينين بعض الشيء، حليق الذقن، شاربه غير مقصوص، كما يتوجب.

- سرق قناطير قمح من أبيه، باعها وجاء ينفقها. أتراه في أول الطريق أم في آخرها؟

قالت المعلمة لنفسها، وهي تستقبله بابتسامة متصنعة، بينما بصرها يجول فيمن هناك من البنات سيقع عليها اختيار هذا القروي.

- *وأنا الوحدانية. أنا قليلة الوالي.*

انبعث اللحن، محملا بشحنات قوية من الأسى، فطربت العنابية، لهذا الجو الذي تستهل به سبتها.

- هذه البنت، رغم أنها تكثر من تعاطي الخمر، فإنها مرحة، لا تكل.

قالت لنفسها، وتصنعت حديثا، مع واحدة كانت تتناول الطعام على طاولة البهو، في حين كان بصرها، يلاحق الشاب القروي.

- بيرة، هات بيرة.

طلب القروي ما أن جلس. رمقه حمود الجيدوكا بنصف نظرة، ثم راح يلبي طلبه في تباطؤ مفتعل. إنه لا يدري سببا معينا لهذا التصرف الذي يتعمده حين يكون مراقبا في شغله من طرف الزبون. لعله يريد أن يقول له، أنت ونقودك، وحياتك، بالنسبة لي، أنا حمود الجيدوكا، تساوي صفرا في صفر، في طز. إن لم يرقك أسلوبي في العمل، رميت بك كالفأر الميت خارج الباب. ولعله يتذكر عشرينته في الأشغال الشاقة، وسط أكوام الملح في الصيف الحار، والسلاسل في قدميه، أو وسط الأحراش يقص الأشجار العملاقة والثلج يلسعه في الشتاء. على أية حال. إنه مقتنع بأن هذا التصرف ينسجم مع هذا المكان ويكسبه فوق ذلك، هيبة، هو في حاجة إليها.

- *رحنا وراحوا عنا، ولا حد منا اتهمنا...عيني يا عيني.*
- عيني يا عيني .

انتظرت العنابية أن يشير القروي إلى واحدة من اللائي كن في البهو، أو يقفن من حين لآخـر في أبواب غرفهن، أو يطللن من شرفتي الطابقين، إلا أن القروي، لم يفعل بعد.

شعرت بالضيق، فسعلت سعلة معروفة جيدا لدى البنات، واتجهت بنفسها نحوه ... من يدري، لعلني... لعله،

- *وأنا البرانية، وأنا قليلة الوالي .*
- احبابنا بالروح.
- مرحبا بك. أنهيتم الصيف بسلام !

رفع بصره نحوها، وراح يتأملها. لا صغيرة ولا كبيرة. لولا من معها من النساء، لبدت أجمل واحدة في العالم. ليس عليها سوى حمالة الصدر والتبان. بيضاء مع حمرة، لدنة، ممتلئة.

فكرت أن تجلس إلى جانبه، دون دعوة منه، إلا أنها استنكفت. البنات ينظـرن وعلجيـة ذات اللسان الطويل، ما تفتأ تسمعها أنا الوحدانية . إنها تعنيني ما في ذلك ريب. لقد رأتنـي البارحـة، أسرق زبونا من الباب الخارجي وأقحمه إلى غرفتي. لا. ثم إنه لم يجبني عن سؤالي. لعله خجل، بل إنه كذلك. القرويون لا ينطلقون مع المرأة إلا في الظلمة أو بعد أن تصعد أبخرة البيـرة إلـى رؤوسهم الفارغة.

نزلت حياة النفوس إلى البهو من الطابق الأول، تتثنى في دلال. سرعان مـا لفتـت انتبـاه الرجل. فغر فاه، وراح يملأ منها عينيه.

- أريد قهوة يا حمود. رأسي توجعني يا حمود خويا.

قالت، وراحت تجيل بصرها في المناضد والمقاعد، تختار أيها تتجه نحوها. تراجعت العنابيـة إلى الوراء قليلا، كأنما تخلي لها الجو للسطو على القروي، اتجهت حياة النفوس نحـو منضـدة خلف الرجل. امتعضت العنابية لبرودتها. تبعتها عينا الرجل.

- أتريدين قرصا مسكنا؟

قالت العنابية، فردت في عنهجية:

- لا. أريد قهوة. أريدها ثقيلة ومرة. أنا أختك يا حمود خويا.

أسرع حمود الجيدوكا ، على غير عادته، يشعل الكانون الغازي، ويضع فوقه *الغلاّية* . حياة النفوس لي. لي أنا. سأستعيد كل ما فات من أجلها. نارها تتقد في القلب قوية. أصفي حساب *خاتم الهزية* الكلب، وأنتزعها منه. سأغامر من جديد من أجل حياة النفوس، لـن يسـتطيع أن يصـمد أمامي ربع ساعة.

أجره من سلاحه حالما يستخرجه، ثم أسحبه إلى زاوية خالية وانفرد بـه. مـن أجـل حيـاة النفوس. من أجل عينيها الناعستين. من أجل شفتيها المكتنزتين، من أجل رشاقتها، ولطافتها. مـن أجل شعرها الليلي. إذا ما قبلت حياة النفوس أن تتزوجني، أخرجها من هنا، الليلة بالذات.

- أينك يا حمود يا عزيزي؟

- أنا هنا، يا حيّوته. لحظة واحدة وآتيك.

غمزها الشاب القروي، فتجاهلته. قررت أن تتجاهله.

يا فتاح يا رزاق. صباح ربي. هذا العجل من أي اسطبل انطلق؟ إنهن كثيرات. اختر غيري.

قالت في سرها، وهي تسوي القميص الأحمر النيلوني الشفاف على فخذيها العاريين، العجـل يوشك أن يلتهمني بعينيه. نظرة المعلمة لا تعجب.

أشار القروي، بيده صراحة، أن تجلس قربه، فتجاهلته مبادرة:

- راسي يا حمود خويا راسي. أنا مريضة.

- احبابنا يا عيني بالروح جاروا علينا.

- لحظة. هاهي قهوة تركية، تحيي النفوس.

جاء حمود الجيدوكا يركض بفنجان القهوة، سبقه القروي إلى منضدة الفتاة. مد يـده ليحييهـا فطلبت منه سيجارة.

- هات بيرتين هات.

وضع حمود الفنجان. تأمل الفتاة بنهم. دقق النظر في القروي. ارتفع صوت العنابية مؤنبا.

- السيد يطلب بيرتين يا حمود الجيدوكا.

انطلق حمود نحو المشرب متثاقلا. رن جرس الباب. دخل جندي، اشترى بدلة اتصال، واقتحم أول باب صادفه مفتوحا.

رن الجرس مرة أخرى. دخل شابان خجلان، وراحا يتبادلان النقود والبدلات مـع المعلمـة، وهما يبتسمان في سخرية من أنفسهما. احتسى القروي بيرته. صبت له حيـاة النفـوس مـا فـي قارورتها فلم يمانع. دفع الحساب وطلب المزيد.

- لا تعطني بيرة يا حمود. هات مشروبا آخر.

- آه، بدأ السبت يرسل أنفاسه الكريمة. اللهم نجنا من خاتم الهزية .

قالت المعلمة لنفسها، واعتدلت في مقعدها، تدخن سيجارتها بالتذاذ. انبعث صوت علجية مـن فوق:

- وأنا وأنا الوحدانية. أنا قليلة الوالي.

احتسى حمود كأس نبيذ أحمر، وتمتم:

- إذا ما جاء اليوم صفيت حسابه. يا هو يا أنا؟

وتساءلت حياة النفوس وهي ترشف من كأسها:

- ماذا تنتظر؟

- أريد أن تتزوجي مني. عندي نقود كثيرة. خاف لي أبي تركة هائلـة، أريـد أن أتزوجـك.

فاجأها القروي، فلم تتمالك من الضحك. رن الجرس مرة أخرى. انبعث الصوت:

- أحبابنا يا عيني. رحنا وراحوا عنا.

التحديق في المرآة

أطال الحاج كيان التحديق في المرآة المنتصبة أمامه حتى بدأت تختفي شيئا فشيئا. الدخان يتصاعد من الغليون، وذرات حلوى الترك تتحلل في فمه، مع العسل والحشيش. أطراف المرآة تختفي. تنمحي. وسطها يتحول إلى بؤرة. البؤرة تضيق وتضيق. ثم تتسع وتتسع.

الساعة الثالثة صباحا. الشاب يستيقظ من نومه ملتاعا.

يضع جبته الزرقاء البالية على كتفيه، طربوشه الأحمر المتسخ على رأسه. يحمل إضبارته ويغادر المأوى الخيري، منطلقا في الأنهج الضيقة، نحو جامع الزيتونة. الحارس يفتح البوابات الخشبية العتيقة لكي يمر. لقد اعتاده، وتعود مروره كل صباح من هنا في مثل هذه الساعة. مر بالأسواق المختلفة، انفتحت في وجهه جميع البوابات، ووجد في نفسه أخيرا في رحاب جامع الزيتونة الأعظم، توضأ. صلى الفجر، أخرج من الإضبارة ديوان المتنبي، وراح يتلوه من أوله، كما لو أنه كتاب مقدس. كان يستظهر القصائد والأبيات عن ظهر قلب، ولا يتوقف إلا من حين لآخر، وبمجرد أن يلمح مطلع البيت، ينطلق في الاستظهار. توقف عند مرثية أخت سيف الدولة، وأعاد قراءتها عدة مرات. إنه يحبها.

يحبهما معا. القصيدة، وأخت سيف الدولة. أخت خير أخ، وابنة خير أب. هذه التي تزوره كل ليلة قبل أن يستسلم للنوم. تطبع على جبينه قبلات، ثم تتمدد إلى جانبه على سريره الحجري، تهمس في أذنه كثيرا، ثم تعانقه وتستسلم له، ليستسلم بعد ذلك إلى النوم، الساعة الثالثة إلا ربعا.

أُذن لصلاة الصبح. أقيمت الصلاة. بعدها أمسك شيخ التجويد بيده وقاده إلى سارية بزاوية مظلمة، وراح يعلمه القراءات السبع. يرتل آية على قراءة، ويطلب منه أن يقلده. في حين ظل يحتفظ بيده، ويدلكها من حين لآخر.

كان أول من يحضر درس التجويد من طريقته بالسنة الثالثة، وكان الشيخ متعلقا بـه أقصـى التعلق، ويؤكد له كل صباح، أنه سيكون أعظم مجود على الإطلاق. حاول مرة أن ينزع يده مـن كف الشيخ، فنهره قائلا:

- لا تقطع الصلة الروحية بيننا.

منذ ذلك اليوم، تعود أن يترك يده، غير مبال بأصابع الشيخ التي تواصل حركة مريبة...

في الليل، على الساعة الرابعة والخامسة صباحا وفي البرد القارس، وبعد صلاة الفجر والصبح والآيات البينات تتلى منغمة، لا يرفض الإنسان أي مصدر للحنان والدفء. لابد أن الشيخ أيضـا، يعاني الشعور بالغربة والتفرد.

حلت الثامنة. جاء شيخ البلاغة. كان منذ أسبوعين يصول ويجول، في درس الكناية، ولا هم له سوى شرح شاهد بعيدة مهوى القرط .

اسمعوا يا أبنائي. تقولون عنقها طويل. أقول لكم ناقة أو زرافة. تقولون بين وجهها وصـدرها مسافة. أقول لكم هذا كلام عمال الطرقات والجسور.

ماذا يبقى إذن؟ يبقى أن نلبسها قرطا. أن نضع قرطا في أذنيها، ثم نرى ما إذا كان هذا القرط ينزل على كتفيها أم لا؟ قد لا ينزل ولكنه يكون قريبا منهما، فإذا لم ينزل وظل بعيدا، ماذا نقـول في هذه الغادة؟

- نقول طويلة العنق.
- لا يا حمار. ليست زرافة. ماذا نقول إذن؟
- بعيدة مهوى القرط يا سيدي؟.
- أحسنت. أحسنت. هذه هي البلاغة. وهذا هو الجمال.

ويغرق في وصف الجمال، ويحضر امرؤ القيس، وعمر بن أبي ربيعة، وتحضـر أوصـاف الجياد والنوق والمحبوبات حتى تأتي التاسعة، يحضر، أستاذ التوحيد أبو الحسن علي الأشعري كما سمي في السنة الفارطة، وحسن البنا، كما يسمى هذه السنة.

انقضت السنة الدراسية الفارطة، في إبراز مآثر أبي الحسن علي الأشعري، وأياديه البيضـاء على الإسلام، وفي ذم خصومه الكفرة الملحدين المعتزلة أصحاب الأفكار المستوردة في الإسلام.

تأملوا عمق ما اهتدى إليه الأشعري. كل ما يخطر ببالك فالله ليس كذلك. جبـل لا. نـور لا. سحاب لا.

- من خطر بباله شيء يبده.
- ... سيدي الشيخ.
- لا يا حصان.
- ... يا سيدي.
- قلت لا.
- ...
- لا يا رأس البطيخ.
- عرفته سيدي الشيخ عرفته.
- ما هو. كيف تتمكن من معرفته وأبو الحسن الأشعري يعلن استحالة ذلك؟.
- لاشيء. لاشيء إطلاقا. حاشاه جل وعلا أن يكون شيئا. يكون عندما ينتفي كل تصور له.
- أحسنت. أحسنت. أيها النجيب. كل ما يخطر ببالك فهو ليس كذلك. لقد أضفت جديدا أيهـا الجزائري النجيب. يكون عندما ينتفي كل تصور له. وأنا ألخص كلامك هـذا هكـذا: لا يكـون ويكون. الإيمان به، كما ليس هو، وليس كما هو.
- إنه غير موجود إطلاقا حينئذ.
- من هذا المعتزلي الكلب. من هذا الكافر الجاحد. من هذا الباطني اللعين. ادع لي القيم العـام أيها الجزائري. سأطرده من جامع الزيتونة الأعظم وفروعه. كل فروعه. أقسم بـالله الناطق الفاتق. إنه مطرود، مطرود. مطرود نهائيا.

جاء القيم العام، فتح تحقيقا مدققا للوصول إلى معرفة صاحب البدعة، إلا أنه لم ينته إلى أيـة نتيجة.

- لعلك أنت أيها الجزائري اللعين؟

تساءل الشيخ، فانفجر كل الطلبة بالضحك. ضحك الشيخ والقيم العام بدورهما، وأغلـق ملـف الأشعري. تغيب الأستاذ كامل الأسبوع المتبقي. وعند استئناف السنة الجديدة جاء دور حسن البنا.

- اسمعوا أيها الملاحدة. هناك أربع شخصيات في التاريخ الإسلامي ذات وزن عظيم. محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الذي جاء بالإسلام. صلوات الله عليه. وأبو الحسن علي الأشعري. الذي افتك علم الكلام من أعداء الإسلام واستعمله لنصرة الإسلام، وأبو حامد الغزالي. إنكم لا تعرفون بعد الغزالي. لكن احفظوا هنا الاسم، ودعوه جانبا ولنتأمل أمر هذا الزعيم المصري الذي ظهر أخيرا، يدعو إلى الجهاد في سبيل الله.

حسن البنّا أيها الملاحدة، أسس حزبا. أساسه الكتاب والسنة والجهاد في سبيل الله. حسن البنا، ليس عالما دينيا غارقا في النظريات والتفاسير، وإنما هو قائد، ومعلم ومجاهد. تصوروا أنه يبث دعوته في كل مكان، في الشوارع. والمقاهي، في الساحات العامة، في القاعات السينمائية. في المسارح، في كل مكان يمكن أن يتجمهر فيه الناس. الشيخ. يقتحم حتى...آه حتى. تصوروا أين يقتحم الشيخ.

- ثكنات الجند؟
- هذا طبيعي يا بليد؟
- قاعات الملاكمة؟.
- وهذا أيضا طبيعي يا غبي.
- الدور والقصور؟
- وما وجه الغرابة في ذلك؟
- دور البغاء سيدي.
- من هذا؟ الجزائري، أحسنت أيها النجيب. أحسنت. الشيخ يقتحم دور البغاء، ويبث الدعوة هنالك.
- هل العاهرات كافرات يا سيدي؟
- من طرح هذا السؤال؟
- أنا يا سيدي.

- آه. أنت أيها الجزائري مرة أخرى. أحسنت بهذا السؤال. إن الشيخ. لا يبشر بالإسـلام أو يدعو للدخول إليه إنما. يستنهض المسلمين. فكما يدخل المقاهي والملاعـب والمسـارح. ويقـيم التجمعات في الساحات العامة، يقصد أيضا الغاويات الضالات.

- وهل يشترط في البغي لكي تدخل حزب الشيخ ، أن تغادر الماخور يا سيدي؟

- من هذا البليد الذي طرح هذا السؤال؟ من؟ من؟ اعلم أيها البليد، أن حزب الشيخ قائم على الطهارة والصفاء والإيمان. والضالة التي لم تتغلب على ضعفها، كيف يمكنها أن تقدم على الكفاح لإقامة حكم الله.

استهوته الفكرة. أعلن في قرارة نفسه أنه من حزب حسن البنّا.

بدأ بالدعوة في المأوى الخيري. فطن إليه طالب رسب في امتحان الأهلية خمس مرات، فدعاه إلى غرفته. أغلق الباب. دنا منه جيدا وراح يهمس:

- إذا كنت تؤمن حقا بما كنت تصرح به. انضم إلينا. إننا نشكل فرقة إخوانيـة كبيـرة. إن عملنا سري، وينبغي أن تعلم هذا، هل علمت شيئا عن الباطنية والشيعة والخوارج وأسلوب التقية، إننا هنا، لأننا تحت حكم الكفار، نتبع التقية.

- ولم ذلك؟
- لقد ألقي القبض على بعض الإخوان في مصر.
- اعتبروني منكم. سأكرس حياتي للجهاد في سبيل الله.
- تعال إلى غرفتي في الليل، كي أعطيك بعض الكتب والوثائق.
- شكرا لك. هل صحيح أن حسن البنا؟
- قل الإمام حسن.
- الإمام البنا.
- الإمام تكفي. ما به؟
- هل صحيح أنه يدعو حتى في المواخير.
- لقد هدى الله على يده أكثر من بغي.
- ومن يدعو هنا في المواخير؟

- لم نصل إلى تلك المرحلة بعد.
- سأفعل ذلك.
- ماذا تقول؟
- منذ الليلة.

خاتم الهزّية

- ماذا تقولين؟
- هات لي من تركة *أبيك تفاحا يفوح يرد العقل والروح.*

ردت حياة النفوس ساخرة، ثم قهقت. وهتفت:

- تعال يا حمود، أقل لك تعال.

جاء حمود الجيدوكا مسرعا، انحنى أمامها، وراح يسألها بابتسامته المتذللة أن تأمر.

إنه يعرض علي الزواج يا حمود. ما قولك؟

قطب حمود. وراح ينقل بصره بين الإثنين، والغيظ يتقد في عينيه... أمسكه من ربطة عنقه هذه. أشدد عليه الخناق. تبرز عيناه الضيقتان هاتان. أحمله إلى فوق. ابصق على شاربه المعوج عشرين بصقة. أحمله إلى الباب. أقذف به خارجا. لن يعود حتى ينهق الحمار في البحر. ابن الكلب، من عشرين واحدة هنا، لم تعجبه سوى حياة النفوس. ابن الكلب صعدت البيرة إلى رأسه بسرعة.

- يا حمود.

هتفت العنابية، وقد فهمت الوضع. فولّى إلى مشربه وهو يتفحص قبضتيه. لن يفلت مني على كل حال. ستصعد البيرة أكثر، وإذ ذاك، تكون المعلمة بالذات هي التي تطلب مني أن أقذف به خارجا.

دققت العنابية النظر في القروي، وفي حياة النفوس، وابتسمت. إذا ما عرفت الفتاة كيف تلعب لعبها، أضفناه إلى القائمة. عشرون مثله يكفونني. هذا الشاب يبدو أنه غني. على كل حال يجب أن نعرف هويته ومكانته. لو أن علجية هي التي تولت أمره، لمخضته بسرعة. الفتاة حياة النفوس بلهاء. دمها إنكليزي، لا يهمها سوى الوقوف عند المرآة، وتأمل جمالها، خيرها وشرها متساويان. تجلب زبائن كثيرين ومحترمين أيضا، وتجلب كذلك كل من دب وهب من الهزية . حمود الجيدوكا، عينه عليها، عشقها من يوم دخلت. لكن ها هو أمره يتفاقم يوما إثر يوم. حمود كبير،

البنت صغيرة. حمود الجيدوكا، فاته الركب، ولن يثبت في الميدان يومين. انهزم قبله، ومن أجـل هذه البنت بالذات، أربعة هزية. كحل الرأس وما أدراك، انهزم. بوهراوة وما أدراك اختفى أمام حميد الترسيتي ، حميد الترسيتي وشطارته، أكلها أمام باباي البوكسور وتنازل له عنها، ودخل في خدمته، حتى جاءهما هذا اللعين خاتم الهزية .

أيفكر حمود الجيدوكا في مقارعة خاتم الهزية؟ قد يقهره في الجولة الأولى، نفترض ذلك، لكن هل يقوى على الثبات أمامه؟ إن حمود الجيدوكا مريض ولاشك.

- أحبابنا يا عيني، بالروح جاروا علينا.
- وأنا وأنا قليلة الوالي.

تجاوب الصوتان ثم انقطعا ليفسحا المجال للحن ينبعث من اسطوانة وضعها حمود لتوه: *نوره يا نوره يا وردة ناديه في بلوره .*

- يحييك خويا حمود.

قالت حياة النفوس، هاربة من الصمت الذي ران بينها وبين القـروي، وهتفـت علجيـة مـن غرفتها.

- البار عمر يا حمود. البار عمر، دعنا من هذا البكاء.
- فريد يحيي النفوس يا علجية بنت أمهْ.

صعد تعليق من الطابق الأول. رن الجرس. دخل خاتم الهزية، محاطا بمسـاعديه، ومتبوعـا بالمغني والقصابين.

وقفت المعلمة، وارتسم على محياها سؤال كبير. ماذا تريد؟ اليوم سبتي. أنا مدانة، وعلـي أن أجمع المبلغ في أقرب وقت.

وقفت حياة النفوس، وراحت تستقبله. قدمت خدها ليقبلها، فاحتضنها وحملهـا بـين ذراعيـه، وهتف:

- ما هذا الوجوم المخيم على الدار. اليوم سبت على ما أعرف.

اتجه إلى المشرب، وهتف:

- هات ستة هات.

- المعلمة تريد السبت والأحد بدون مشاكل. أنت تعرف أنها مدانة.
- قلت هات ستة. واعط لحياة النفوس ما تريد. دعيك من المعلمة. من يخلق المشـاكل وأنـا هنا.

فتح حمود الجيدوكا قوارير البيرة الست، بعد أن صفها فوق المشرب. أنزل خاتم الهزية حيـاة النفوس، بعد أن قبلها بحرارة.

ارتفعت القصبة بلحن الأغنية، التي يعلن فيها صاحبها، عن أمنيته في أن يكون له جواد فـي سرعة البرق، يمتطيه ويلحق نجعته، مهما كانت البراري التي تتيه فيها.

رن الجرس. انفتح الباب. ابتسمت العنابية. تناول خاتم الهزية قارورته وراح يعب منهـا دون كأس. صب المغني والقصاب كأسين في جوفيهما.

نزلت علجية في قميص الرقص، مسرعة نحو البهو. صدرها يهتز، رجلاها تضربان الأرض دونما شفقة، رأسها يروح ويجيء.

كانت كفرس الأعراس.

سلم المغني عليها، ثم أمسك بيدها. رفع اللثام إلى فمه، وضرب صاحبيه بمرفقه. تغير اللحـن بسرعة، وارتفعت عقيرة الرجل والمرأة، دفعة واحدة، وكأنهما استعدا لذلك وقتـا طـويلا. كانـا يذرعان البهو جيئة وذهابا متكاتفين متفاخذين. التف بهما باقي النساء، ولم تمر لحظة، حتى كانـت القاعة كلها تردد معهما، في نبرة مرحة، خالية من أي هم أو أسى: *أرواح أرواح وكي نشـوفك نرتاح* .

- هات ستة هات.

رن جرس الباب. ابتسمت العنابية وهي تمنح العسكري الداخل بدلة الاتصال. انسحبت حيـاة النفوس خفية ولحقت العسكري. هتف القروي:

- بيرة هات.

لم ينتبه لوجوده أحد. كانت علجية تروح وتجيء، ضـاربة الأرض برجليهـا، متأبطـة ذراع المغني. كانت النساء العاريات إلا من قطع صغيرة، يهتفن من أعماقهن *أرواح أرواح* . كان الجو

كنائسيا مقلوبا. لم يكن هناك أحد يدعو قوة غيبية خارقة، وإنما كان كل من هنالك، يفرز ما في أعماقه.

- هات ستة هات.

تأمله حمود الجيدوكا جيدا، حاول أن يتعرف عليه. ربعا ممتلئا كالعجل. شعر رأسه أصهب، وجهه أحمر. جميل. أنفه طويل بعض الشيء، لا يخيل للمرء أنه ينظر في اتجاه معين، عينه اليسرى حولاء، في التاسعة عشرة على أكثر تقدير. يسير بكلكله كالخنزير. يوم اصطدم *بباباي البوكسور* كشف عن جنون لا حدود له. حمل حياة النفوس بيد واحدة من خصرها. أبعدها من بين ذراعي الزنجي الملاكم. ووقف بينهما. اغتاظ البوكسور فبادره باثنتين. قرر أن ينتصر عليه في الجولة الأولى. قهقه خاتم الهزية، ووضع يديه خلف ظهره، وقدم وجهه وصدره لتلقي الضربات. بذل البوكسور جهدا كبيرا لإسقاطه إلا أنه لم يسقط. قهقه مرة أخرى وهجم كالعجل عليه. حاول البوكسور أن يثْبُت إلا أنه اضطر للتراجع. ضربه برأسه عند صدره، فتجشأ الزنجي. كال له اثنتين قويتين، استقرتا في وجهه، فاضطرب. ركله بين فخذيه فصرخ كالثور وهوى. وثب عليه العجل واستل خنجره. وضع رجله على عنقه وراح يفتح سرواله بالخنجر. عندما عراه، رسم على آليته خطوطا متعامدة، بصق عليه وتركه. تحامل البوكسور على النهوض. تسلل منحنيا، واختفى نهائيا. سأعرف كيف أنتقم للبوكسور. سألعب ورقة غروره وأسقطه منذ اللحظة الأولى *بل على الخرب قبل أن تصير كنائس*. لن تكون هناك أية بطولة. سيكون الحسم وهذا كل ما في الأمر. البنت حياة النفوس. لي. لي أنا، وسأحررها، لأول فرصة تتاح. دعه يشرب أكثر.

- قلت ستة...هات.

افتقد خاتم الهزية عشيقته حياة النفوس، في غمرة هتافات الظمأ المنطلقة. لم يجدها. تخلص من مساعديه وبعض النساء اللائي كن قربه، وأسرع إلى الطابق الأول. اقتحم غرفة حياة النفوس. وجدها مستلقية على الفراش، منفردة. ابتسمت له. ابتسم. كانت آثار الاتصال لا تزال واضحة. انحنى وقبلها. قبّلته من أعماقها. أمسكها من عنقها وحملها إليه. صفعها بعنف، وباردت يداه إلى الضغط. راح يخنقها. حدق فيها. الحمرة تكسو وجهها. عيناها الدامعتان تبرزان أكثر. اللعاب يسيل من فمها. أطلقها. احتضنها. ضمها إلى صدره راح يبكي. كانت تقبله وتمسح عليه.

حملها بين ذراعيه، نزل بها الدرج خطوة فخطوة، اتجه الجميع إليه، وواصلوا هتافاتهم: أرواح أرواح وكي نشوفك نرتاح .

هات ستة هات.

هتف من بعيد. رن جرس الباب، دخلت جماعة من الشباب، اهتزت العنابيـة فرحـا عنـدما استطاعت أن تغري أحدهم، فتختطفه وتقحمه إلى جناحها. بدأ عدد النساء يقل من البهو. كن يتسللن الواحدة إثر الأخرى إلى غرفهن خلف الزبائن.

وقف أحدهم يطلب حياة النفوس. أشارت إلى من حولها، مؤكدة أنها منشـغلة، إلا أن الشـاب وقف مصرا، وهو يستظهر ببدلة اتصاله.

- أنا هنا من أجلك. لقد دفعت الثمن.

التفتت إلى خاتم الهزية، وراحت تستفسره بعينيها.

دم الإمام

كان تصميمه قويا.

أكون الإمام الثاني هنا. أنشر الدعوة، على غرار السلف الصالح، الأشعري، أو الغزالـي، أو عبد الرحمن بن رستم، أو غيرهم. أبدأ التجربة من دار البغاء. يجب أن أقهر ذاتي، قبل أن أقهـر غيري. من لم ينتصر على نفسه، لن ينتصر على غيره. كل واحدة تتوب أجندها، ونضـيفها فـي قائمة الإخوان. لم أدخل إلى هناك سوى مرة واحدة. كان البؤس يبدو عليهن، رغم اللامبالاة التـي يصطنعنها، كن ككلبات السرك، متدربات على حركات كثيرة، شغلهن الشاغل، ما سـتقذفه لهـن الأيدي من قطع السكر. لم أحتمل المغامرة، فقد خيل إلي، أنها زائفة، وأنها أشبه ما تكون بالاعتداء على النفس. خالية من سحر الحلم، ومشحونة بفاجعة الواقع. صديقاي خرجا مسرورين. قالا إنهما غطسا في ماء دافئ وخرجا. كانا منتعشين.

لم أفهم طبيعة هذا التناقض الصارخ. في حين يغلق مجتمعنا على المرأة الإغلاق التام، ويعتبر الاختلاط حراما، يسمح بأن تكون هناك مثل هذه المؤسسات. تخرج الواحدة مـن بيـت أبيهـا أو أخيها، أو تغادر زوجها وأطفالها، وتأتي إلى هنا لتبيع بالنقود، ولكل صاحب نقود، ما أباحـه الله، بشروط معينة.

إنها بضاعة... في كلتا الحالتين... في حالة امتلاكها وخزنها. احتكارا للنفس، أو في انتظـار الزبون اللائق صاحب العرض الأوفر. وفي حالة جمعها في محال عمومية، تقع وسـط السـكان، وقرب المساجد وبيوت الله. وعرضها على كل من يشاء.

هناك تباع بالجملة. وهنا تباع بالتقسيط.

وهي دائما ككلبة السيرك، تؤدي الأدوار التي تدرب عليها. وبصرها عالق بالأيـدي المعلنـة لقطعة السكر. يقينا أن أنينها خال من النزعة الإنسانية. أنين لا يحمل شحن التطلع، أو اللـوم، أو

حتى الرجاء. أنين توجع لا غير. إنها مجردة من الإنسانية، وعلى استعداد تام لأن تصير سمكة أو كلبة، أو بغلة أو أي حيوان آخر. لا تعرف من الحياة، إلا ما يمر على حاسة ذوقها.

المسكينة، معروضة هناك كبركة ماء دافئ. يغطس فيها كل قادم. كل مستقبلها في شبابها. ما أن يذوي، حتى يقذف بها في الشارع، لتترك مكانها لمن هي أدفأ. لا تطمع في بنت أو ولد أو أمومة أو حنان.

سأطّلع على كتاب *الطاهر حداد إمراتنا في الشريعة والمجتمع* ، رغم أن مشائخ الزيتونة يحرمونه، ويكفرون صاحبه. ترى كيف يتصور وضع هذه المغبونة؟

إن وضعها في الجنة غامض جدا، بل، إنه أشبه ما يكون بوضعها هنا. هنا بضاعة تباع بالجملة وبالتقسيط، وهنالك بضاعة تعطى بالجملة وبالتقسيط.

إنه يبشر المؤمنين بالحور العين والكواعب الأتراب، ولا يبشر المؤمنات إلا بقطع السكر. كل ما يتعلق بهن، يأتي دائما مرتبطا بالرجل. وقد يكون بضاعة بائرة، لأن بعض المؤمنين يشتغلون بالولدان المخلدين.

أيها الخوني. أيها الزيتوني، لقد بدأت تنحرف عن الطريق، قبل أن تشرع في سلوكه. إنك تجندت للدعوة إلى إقامة دولة الكتاب والسنة، وليس إلى تقويض أركان الدين، أو إلى مناقشة أصوله. انتظر حتى تتعمق في أصول الدعوة، ثم ناقش، أو أعط رأيك.

لا تكن معتزليا قبل أن تكون مسلما.

أنت على وشك الوصول إلى مقصدك. فاستعد. اليوم الخميس، وستصادف كثيرا من الزيتونيين هناك، ينفقون المبالغ الزهيدة التي ترسل إليهم، ويعوضون على ذلك بالصوم أسبوعين على الأقل.

الصابرون المتعففون، يجازون في الجنة بالبضاعة المجانية. توهب لهم قطعان وقطعان من الحور العين والكواعب والأتراب والولدان المخلدين.

هيا يا الشيخ، أنت أمام باب ماخور، ارفع يدك ودق الجرس، ادخل مرفوع الرأس، شامخ الأنف، كمن يدخل محل بيع الجلود النتنة. إنك ثري، يخرج من منزله يوم الجمعة قصعة الطعام للفقراء، ويتظاهر بخدمتهم بنفسه.

انفتح الباب.

فتحه له شيخ هزيل، أزرق العينين والشفتين، أصفر الوجه، ذابل النظرة، اسود الأسنان.

- مساء الخير، أخانا في الله.

ابتسم الشيخ، وحدث نفسه، هكذا يأتي الزيتونيون أول ما يأتون. يلجون الباب كما لو أنهم صلاح الدين، ويغادرونه وكأنهم ريكادوس .

اتجه إلى المعلمة في منصتها قرب الباب. حاول أن يفتح معها حوارا، إلا أنها تجاهلته. قدمت له، بدلة اتصال، ناطقة بالثمن، ثم راحت تواصل حديثها مع شخص أنيق. كانت تذكر عبارة الضرائب وترددها عدة مرات، وكان الشخص الأنيق، يؤكد أن المحل، هو أعظم ما هنالك في الأيالة التونسية.

وجد نفسه يدفع الثمن، ويتجه إلى البهو. تعرف على بعض طلبة زملاء له، وآخرين في سنوات أعلى من سنته. كانوا يتحدثون بانطلاق، لكن بأصوات خافتة، بينما كان هو، يشعر بالضيق. كما لو أنه يبيّت أمرا خطيرا...ترى ما هي طريقة الإمام، في الدعوة في هذه الأماكن. هل يصعد على منضدة، وينادي بأعلى صوته:

- اسمعوا يا من هنا. أيتها الضالات ويا أيها الضالون، وأنتن بالذات يا إماء الله. مهما كنتن في قعر الغواية، ومهما كانت خطاياكن، فأنتن أولا وقبل كل شيء مسلمات. وأنا الآن أخاطب نساء مسلمات في هذا المحل، وليس غير ذلك. فاستمعن إلي، ثم قررن ما تشأن واستغفرن الله، فإن الله غفور رحيم.

يقينا أن هذا هو الطريق الأمثل الذي يسلكه الإمام حسن لدعوة الضالات في مثل هذا المكان. لم لا أفعل مثله؟ لقد جئت لهذا الغرض.

الآن أو فلا.

لأمتحن نفسي الآن بالذات. لكن أين هن؟ إنني لا أرى سوى زنجية مشوهة ببدانة فادحة، أو بدوية أكل الوشم جسدها. ثم إن هذا الطابور الطويل، خاف ذلكم الباب المغلق، لماذا؟

لاشك أنهن مشغولات مع الزبائن، ومن الأليق أن أنتزعهن منهم. سيخرجن حالما أشرع في الدعوة.

وبسرعة وجد نفسه على كرسي، ثم على منضدة. أصلح وضع جبته، وسوى طربوشه، شـعر أولا بركبتيه ترتجفان. وبقلبه يهتز، وبفراغ مهول يحيط به، إلا أنه سرعان ما صـعد الـدم إلـى رأسه، ولعبت ضبابة رمادية على عينيه، وغشيت بصره. اعترته حماسة قوية.

- يا من هنا. يا أماء الله. أيتها المسلمات. تعالين أحدثكن. أنا صوت الله. أنا صوت الهـدي والرشاد. تعالين أفقهكن، وأحدثكن حديثا جميلا.

- ما هذا التشويش؟

قالت المعلمة، وأسرعت تتأمله مندهشة. كان رغم ذبول محياه، جميلا. قويا فتيا. في الثامنـة عشرة من عمره. أطول من جبته القصيرة، وأعرض منها. قدماه الكبيرتان يضيق بهمـا الحـذاء المتسخ.

بهت الجميع. تأخر الزيتونيون جانبا. لقد فهمه بعضهم، وخجل بعضهم من انتسابه للمؤسسـة التي ينتمي إليها هذا المشوه. انفتحت الأبواب. خرجت النساء شبه العاريات، ورحن يتسابقن إلـى البهو. وقف كثير من الرجال غير المسرولين في أبواب الغرف، يعتريهم الخوف والاضـطراب. تفكك الطابور عندما برزت صاحبة الباب الذي يقفون عنده، ونزلت بدورها إلى البهو.

- يا أماء الله. أيتها البئيسات. لا أتحدث إليكن بالصفة التي ينعتكن بها المجتمع، عاهرات، أو مومسات، ولا بالصفة التي تشعرن بها في قرارة أنفسكن، حقيرات. أنا صوت الله. صوت الإسلام، صوت الإمام حسن. أتحدث إليكن، أولا وقبل كل شيء كمسلمات.

- ولكن معنا يهوديات.

- ومسيحيات أيضا.

- ها ها ها.

- لو تحدث إلى مشائخه وزملائه الذين لا يفتأون يترددون هنا لكان أفضل.

- البارحة كان الدرس حول حزب الإخوان. أبو الحسن علي الأشـعري، السـنة الماضـية، وحسن البنا، هذه السنة، سيكون مسرورا، عندما يبلغه خبر الجزائري.

- ترى كيف يمكن أن نبلغه الخبر؟

- ويا أيتها المسلمات الضالات. إذا لم يكن صوت الإسلام يبلغكن هنـا قبـل اليـوم، فـذلك لانحلال المجتمع الإسلامي، وللنكسة التي أصابته، لقد تآمر عليه أعداؤه وأبناؤه معا. واليوم، ونحن على أبواب استعادة مجد، خالد، والزبير، وعقبة، وطارق، وصلاح الدين.

- وما تنفع الصلاة ونحن هكذا؟

- إننا هنا نصوم أفضل مما تصوم حرائركم.

- نعم نحن مسلمات. ولكن كل الذين يأتوننا أيضا مسلمون.

- أيها المجنون، هل جئت تخرب عشي. من قال لك أننا غير مسلمات هنا.

- إن النهضة الإسلامية، يجب أن تكون من صنع جميع المسلمين والمسلمات. لماذا لا تكـن أنتن الطليعة؟

- وكيف ذلك؟

- ناد زمردة يكسر له فمه.

- لا. هاتوه لي. هاتوه. أنا أعرف ما أفعل به.

قالت العنابية، وتقدمت منه، تفتح ذراعيها وتطلبه. لم يرها. كان يرى ملايين الملايـين مـن الأجساد العارية والأثداء المتدلية والفروج المكشوفة. كان يحاول أن يستر هذه الأجساد. أن يعيـد إلى الأثداء والفروج حرمتها.

- أيتها المرأة لقد خلقت لتكثري أمة محمد. لتعمري الكون بالمسلمين، فيتباهى بنا المختار يوم الدين.

- هيا أعينوني عليه.

أمسكته من رجليه. حاول أن يتخلص. سقط إلى الخلف. أمسكته واحدة. تناولت ذراعه الأيمن، تناولت أخرى ذراعه الأيسر. احتضنته إحداهن من وسطه. تقدمت أخرى تتناول إحدى ركبتيه.

كان لا يزال يخطب.

- لقد وعد الله الشهداء بالجنة. لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهـم يرزقون.

- إلى غرفتي. إلى غرفتي. سأريه جنته. إلى غرفتي. سيعرف رحمة ربه.

أمرت العنابية، ووجد نفسه يستسلم. ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم . يا نار كـونى بـردا وسلاما على إبراهيم . باسم الله مجراها ومرساها . يا قطام ألا تجدين مهرا سوى دم علي بن أبي طالب. يا ابن الملجم، قطام مجنونة. أيها الموت. ألم تعشق زوج فاطمة إلا مهـرا لقطـام. أيهـا التاريخ. ألست سوى ما يكتبه الأعداء المنتصرون، عن الخصوم المنهزمين. أحقا لم يهن دم زوج بنت الرسول، وابن أخيه، وصاحب نهج البلاغة، ألا مهرا لقطام. أحقا، لم يقو على علي بن أبـي طالب، بطل من الترك أو الفرس أو الروم أو غيرهم، سوى بن الملجم، العاشق الساذج؟

- أدخلوه هنا. سيرى معنى فعلته. قولوا للزبائن، العنابية مشغولة بمريض.

حنين النار وحنين الريح

- *آما ويشعشع نوره.*

خرجت العنابية من جناحها تغني. بصق الشاب الذي كان معها خلفه، ثم غادر المكان.

كان الغناء قد توقف، كذلك العزف والرقص. تفرق معظم النساء. حتى علجية اختفـت. بقـي خاتم الهزية، ومساعداه، والمغني، والقصابان، وحمود هناك خلف المشرب يبيـت أمـرأ، وحيـاة النفوس والشاب صاحب بدلة الاتصال.

راح خاتم الهزية يتعرف عليه. أطول مني بقليل. أسمر، مفتول العضـلات، أشـعر الصـدر والذراعين، في الثانية والعشرين أو يزيد. هادئ متزن، لا يظهر عليه إطلاقا، أي أثر للغرور، أو لاحتقار غيره.

يريدها وهذا كل ما في الأمر.

جاء بنقوده، ليشتريها لوقت معدود. وهي هنا معروضة للبيع، له، أو لغيره، أو لي، لكل مـن يملك نقودا، أنا هزيها بأي شيء إذن؟ بالاتصال المجاني معها أم بضربها كـل يـوم تقريبـا؟ أم بالاستيلاء على نقودها؟

أنا فتاها في أوقات فراغها. هي إذ ذاك لي، ولي وحدي. هي وما تملك. وكل من تسـول لـه نفسه لحظتها أن ينتزعها مني، أشرب من دمه. ليس من حق الهزي، أن يعرض نفسه لإهانات مثل هذا البليد. إنه يعلم أنها منشغلة معي، ومع ذلك يطلبها، إنه غبي على كل حال.

غبي، ومع ذلك، اشترى بدلة اتصال من أجلها، وسيرافقها إلى غرفتها، يغلق دونهـا البـاب، تنبطح له كالذبيحة، ويلوثها. لعلها تتعلق به. لعله يترك في قلبها أثرا.

غلى الدم في عروقه. تصاعدت البيرة إلى رأسه، قرر أن ينتقم لشـرفه. التفـت إلـى حيـاة النفوس، وفاجأها، بصفعة لاذعة. ارتمت عليه تقبل يده، وتضمها إلى صدره، فـي حـين وثـب مساعداه وأمسكاه من مرفقيه.

- ماذا فعلت المسكينة؟

- أنا هزيها. أنا عشيق حياة النفوس. ليعلم الجميع أنني عشيق حياة النفوس.
- هو ذا إذن، عشيقها !

قال القروي، وهو يحتسي كأسه، وأضاف، هذا الفتى الفظ هزيها. تكفيه ضربة واحدة بالعصا حتى يهرب كالكلاب.

- ستكون عما قريب زوجتي.

قال حمود الجيدوكا لنفسه، وهتف الشاب الأسمر:

- سأعود في فرصة أخرى. أنا جئت من أجلك. سأعود بعد حين.

جاءت العنابية مسرعة، تنظر حولها، هل هناك من يمكن أن تستنجد به، في حالة ما إذا تطورت المسألة.

- هذا ماخور وليس غير. البنات هنا، يشتغلن، نحن جميعا هنا نشتغل، لنتغلب على هم الزمن. كان الهزي، يوم كانت الدنيا دنيا، وكان الرجال رجالا، يخجل من الظهور أمام الزبائن. صار هزي اليوم يتظاهر بتعلقه بمعشوقته. اصعدي إلى غرفتك أيتها العاهرة، واصلحي من حالك.
- عفوك خالتي العنابية، سنخرجه من هنا.
- يخْل دار أمك. لقد اتفقنا على أن السبت سبت والأحد أحد.
- العنابية انتبهي إلى ما تقولين. أنا خاتم الهزية. قهرت عشرين هزيا، قبل أن آتي إلى هنا.

تسللت حياة النفوس. لحقها الشاب الأسمر. دق الجرس. ابتسمت العنابية. ارتفعت القصبة، تشكو الظمأ إلى السماء. أشار القروي بيده إلى العنابية، فأسرعت نحوه.

- هات ستة هات.
- حلوة النفوس هذه كم أجرة يومها؟
- ها ها. حلوة النفوس. حلوة الحلقوم. تعبير لطيف جدا. ستسر له حياة.

رفعت صوتها، تكشر عن أسنان الذهب، ورفعت كأس الفتى فأفرغتها في جوفها. همست:

- لم هذا السؤال؟
- أريدها يوما أو يومين.

- إن لم يرقك جناحي هنا، أعطك مفتاح فيلتي في الضاحية. كم يوما تفكر أن تبقى ضيفا علينا؟

- هذا يتوقف على كرم المضيف.

- ثلاثين ألف لليلة.

- هي ذي مائتان عربونا. الحساب يوم تعود.

- لا. لا تستظهر النقود أمام هؤلاء الأشقياء. تعال معي إلى جناحي.

لمح خاتم الهزية النقود وهي تخرج وتعود بسرعة إلى جيب صاحبها. قدر أن هناك بيعا وشراء، وأنه لابد أن يكونا متعلقين بحياة النفوس. المبلغ الذي حصل عليه من بيع مجوهرات أمه، يكاد ينتهي، وسيكون بعد يوم، أو يومين في حاجة إلى نقود. سيطلب حقه، وسيناله، أو يقيم الدنيا ويقعدها على رأس العنابية.

- هات ستة هات. هاتها على حساب المعلمة.

قال عندما رآها تخرج فرحة، تضحك من كل جوارحها، في حين خرج القروي مسرورا بدوره. نظر إليها حمود الجيدوكا، فأومأت برأسها، أن أعطه، وأضافت:

- وهات لي أنيزات.

كان جرس الباب ما يفتأ يدق. وكانت الأبواب ما تفتأ تنغلق وتنفتح، وكان الطابور بدأ يتشكل خلف باب حياة النفوس، وكانت القصبة تحاول أن تبني جسرا ثابتا بين قلب صاحبها، وبين آخر نقطة، في آخر بعد...

وقفت العنابية على المشرب. قدمت سيجارتها إلى حمود الجيدوكا فأشعلها هذا بسرعة. التفت خاتم الهزية إليها، بانت له من خلال عينيه المضببتين، أصغر بكثير مما هي عليه. انحنى قليلا، حملها بين ذراعيه وراح يطوف بها البهو.

تبدلت نغمة القصبة. ارتفعت نقرات البندير[1]، صرخ المغني: *هاتوا لي عودي[2] ولجامه* . اهتزت الأرض تحت قدم خاتم الهزية. طغت النشوة على العنابية. نسيت عمرها. مكانها. جوها. تحولت كل ذرة فيها إلى نشوة ودلال.

[1] في اللهجة الجزائرية الدف وليس الطبل الضخم.

- دعني يا خاتم الهزية دعني.

طغى الضباب على عينيه، بانت له أصغر بكثير، فار دمه أكثر. خفت في ذراعيه. جال بهـا عدة جولات. أطلت النساء من الطابقين، ثم ولين. جرى بها إلى جناحها. رماها علـى السـرير. احتضنته بعنف وقوة. فار شبابه. فاضت أمومتها. انطبقت الأرض والسماء على بعضهما. امتزجا ببعضهما.

همدت أنات القصبة، ودقات البندير، استلقت إلى جانبه، عرى صدرها، وراح يمـتص ثـديها ويبكي. ضمت رأسها إلى صدره، وانهمكت بدورها في بكاء مر...

لو أنني سحابة أطوف بالدنيا كلها، ثم أختار حقل برتقال عطشان فأدفق عليـه، خيـوط مـاء زلال. أسري في العروق، ثم أصعد مع الأغصان، فأتفتح زهرات بيضاء، ثم أنطلق عبيرا، نحـو جميع العاشقين، والعاشقات، اقتحم كيانهم، فأنزل أطفالا، بنين وبنات.

أعيديني إلى صدرك يا أمي. أعيديني إلى رحمك. احتفظي بي هنالك، فلا أتعرض لبـؤس أو ألم. هذا العالم الذي أنا فيه، لا يلائمني. إنه مليء بالتعاسة والشقاء. السيارات والقصور والفتيات، للأغنياء، وأنا ليس لي سوى دم فائر. حياة النفوس، ينتزعها مني، كل من يقوى على شراء بدلـة اتصال. لو كنت سلا، لسكنت صدرها، ولأذويتها، أذويها بسرعة، حتى تدفن وأدفن معها، ويـدفن كل قهر معنا. حياة النفوس، تلعق يدي، كلما صفعتها، إنها تحبني، بل، إنها لا تقوى علـى حبـي. إنها ذليلة، وأنا ذليل، وكل ما في هذا العالم ذليل. أعيديني إلى رحمك.

ارتفعت نداءات القصبة، تستنزل الرغائب من السماء. رن الجرس. استفاقت العنابية. ابتسمت، لمشهد خاتم الهزية يمتص ثديها. تناولت رأسه بين يديها. بان لها في الثانية أو الثالثة. قبلت جبينه، مسحت على رأسه.

- من أين تنفق؟ أعلم أنك لا تشتغل.
- بعت بضاعة.
- ما هي؟ هل سرقت.
- رهنت مجوهرات أمي.

---

[2] فرسي.

- تقول؟ هل سرقتها منها؟
- كلا. أعطتنيها حتى لا أقتل نفسي.
- بكم رهنتها؟
- بمائة وثمانين.
- أعطني وصل الرهن ولا يهمك.
- ماذا تقولين؟
- هل لك إخوة؟
- أنا فقط. أخي الكبير مات في الحرب.
- أبوك؟
- أبي مع زوجته. هجر أمي منذ سنتين.
- هات الوصل.
- العنابية.

ارتفع صوت من الخارج. وثبت. وثب خاتم الهزية خارج الجناح، واتجه نحو المشرب. عـاد الفتى القروي فرحا. سأل العنابية:

- أهي مستعدة. التاكسي تنتظر.
- حالا. حالا. انتظر قليلا.

صعدت إلى الطابق العلوي. ألقت نظرة على الطابور الذي يقف خلف باب غرفة حياة النفس، قالت بصوت منكسر:

- ابحثوا عن أخريات أو استعيدوا نقودكم. البنت ستخرج.

ثم دقت الباب دقتين، وهتفت:

- التحقي. والتحقي بي في جناحي يا حياة النفوس.

ولت راكضة، نحو المشرب، تحاول أن تصرف خاتم الهزية خارجا، قبل أن تنزل البنت، ربما لن يدعها تذهب، ربما يرتكب حماقة، الولد أهوج بحق.

حافات الأجرف

سقط طربوشه في الطريق، فلم يأبه أحد، تمزقت جبته المتهرئة من كل جهة. كـان مستسـلما استسلاما تاما.

- هاتوا أسيري. أدخلوه.

قالت الفتاة، وهي تنهج. وتضحك في نفس الوقت، ثم أضافت:

- على السرير، على السرير.

قُذِف به فوق السرير. لم يكن يُبدي أية مقاومة. المقاومة لماذا. وضد ماذا؟ لقد وقع في أسـر العابثات، وهذا امتحان كبير. كان من الممكن أن تتخذ المسألة مجـرى آخـر. يحملـن العصـي والبشامق، وكل أدوات الضرب، وينهلن عليه. يدمغنه، يكسرن أنفه. يكسرن أسنانه أيضا. يُعـدن معركةَ أُحد، فلا يقوى حتى على الانسحاب. يحملنه من رجليه ويقذفن به خلف الباب الخـارجي. بل، تغري به المعلمة، اثنين أو ثلاثة من الأشقياء، يشوهون خلقته. ويتركونه. أهون ما كان ممكنا أن يتطور إليه الأمر، أن تتلفن إلى الشرطة فيلقى عليه القبض ويساق إلى السجن.

لو أن الإمام تعرض لمثل هذه التجربة، ماذا سيكون رد فعله؟ كيف سـيقاوم؟ أتكفـي تـلاوة الآيات هنا. إقرأْ آية الكرسي. إقرأْ المعوذتين. اغمض عينيك. لا تفتحهما. هذا العطر الذي تنبثـق رائحته مسكر. قاتل.

- هيا اخرجن. سأستنطق الأسير.

أغلقت الباب، وعادت إليه. كان مستلقيا مغمض العينين، خائر القوى مهزوما، يغطي نصـفه إزار وردي، وتملأ صدره رائحة عطر شذية.

- أيها الجزائري الأهوج. أنا أيضا جزائرية. أنا عنابية. من أية منطقة أنت؟

ظل صامتا. هل تعرض الإمام لما أتعرض له؟ أنا أسير عند الكفار، عند الروم، أنا أبو فراس الحمداني !

- هيا حدثني عن القبور، والآخرة والإسلام.

راح يفتح عينيه شيئا فشيئا، كأنما يخشى، أن ينهار الحلم الذي يعيشه. بانت له هي. أخت خير أخ، وابنة خير أب، هكذا تحدث عنها المتنبي، هكذا كانت تأتيه كل ليلة قبل أن ينام. هـي أخـت سيف الدولة بالذات. خولة، ست الناس، بلحمها ودمها. شعرها الفاحم يتوهج تاجا علـى رأسـها، عيناها الواسعتان تنطلق منهما السهام. بين رأسها وصدرها....آه، يا شيخ البلاغة، لا يكفـي هنـا شاهدك، ليست بعيدة مهوى القرط فحسب، إنما القرط هنا، نقطة في بحر. صـدرها بـارز فـي كبرياء، وتحد، خصرها. آه. ماذا يقال هنا يا شيخ البلاغة، امرؤ القيس وحده، يسـتطيع هنـا، أن يصف. جيدها. ينحدر رقيقا، ثم يروح يعرض شيئا فشيئا، حتى ينهض العجز.

تمثال مرمري. آه. ماذا تقول هنا يا امرئ القيس؟

نزعت القميص الحريري الذي كان عليها. وثبت إليه. تناولت خديه بكلتا يديها، وراحت ترفع رأسه إليها.

- أيها الخجول. افتح عينيك. حدق في جيدا. تأمل عيني. حدثني عن الآخرة والقبـور الآن. هيا أرني رجولتك.

ماذا أريد عنده؟ من هو؟ أأعبث أنا؟

وراحت تتأمله.

يكون الآن مثله. لو أنه لا يزال حيا. دخل السنغال المنزل، حملوا أبي إلـى الخـارج، كـان يصرخ. عادوا إلينا.

وضعوا في عنقه حبلا. حمله أحدهم بين يديه. ربط الآخر، الحبل بغصن التينة. كانت رجـلاه تتخبطان. رغم أنه كان يكبرني بسنتين، فإننا، أمي وأبي، وأنا، نراه جميعا طفلا في الخامسـة أو السادسة. كان حبنا له، أكبر منه مليون مرة. ظل يتدلى من التينة، طوال الفترة التي كان السـنغال يعتدون علي وعلى أمي. كانت الفترة طويلة. كنت في الخامسة عشرة. أغمـي علـي. اسـتفقت وأغمي علي. عندما استفقت أخيرا، لم أجد أحدا، لبثت يوما وليلة، لا أقوى علـى الحـراك مـن مكاني. كنت جائعة. خائرة القوى وجائعة. كانت الدماء حولي، ولم يكن هناك أحد.

قبل أن تدمع عيناها، احتواها بين ذراعيه بعنف وقوة. خولة أخت سيف الدولة، بين أحضـاني في الواقع وليس في الحلم أو الخيال ... *فالموت أعذر لي، والصبر أجمل بي، والبر أوسع، والدنيا لمن غلبا* [3]. أيها الإمام، هذا كل ما في الأمر. إنك لا تهدي من أحببت لكن الله يهدي من يشاء؟

- اشرب هذا. اشرب.

الدنيا لمن غاب، كانت الجرعة الأولى مرة. الثانية، أقل مرارة، الثالثة كانت عذبـة. تصـاعد الصفاء إلى ذهنه. بانت له الأشياء على حقيقتها.

إنها أجمل من كل من رأى في السينما، رابحة، عبلة، سامية جمال، إسمهان، ناريمان. لـيس فيها ما يشين إطلاقا. صوتها الرخم يشعر المرء، بأنه جزء منها. بأنها أمه أو أختـه، أو مشـاعر الطيبة فيه. يقينا أنها تفوق خولة بهذه الرقة والحنان. خولة عندما تأتيني في الظلمة، تأتي شـامخة الأنف، عارضة صادّة، تستوضحني في كثير من معاني الأبيات التي أنشدتها هنا وهناك، ثم تسألني لماذا أنا متعجرف هكذا، أُوهِم الناس بأنني أمير أو وزير، أو وال، مع أننـي واحـد مـن عامـة المسلمين، يقول شعرا، ليس أبدع ولا أرق أو أعذب مما قاله زهير، أو أبو تمام، أو مما يقوله أبو فراس. تجلس على حافة السرير في أنفة. عندما تيأس من نزولي على عرش ألوهيتي. تمد يـدها لتمسك بيدي أسحبها داخل الغطاء، ثم أمتزج بها.

- لماذا تفعلين بي كل هذا؟

- هأ هأ. على كل حال، إن ما أفعله بك أهون مما كان سيفعله زمردة الهزي الذي يسـتحوذ علي، أو العين الزرقاء هزي الإيطالية. إنك أولا وقبل كل شيء ابن بلادي.

- أعطني كأسا أخرى.

كانت الغرفة تتسع وتتسع، وكان صدره ينشرح أكثر. والشعور بان الدنيا لا يجـب أن ينظـر إليها، نظرة مجزأة، وإنما كما هي. قضية أعمق. قضية كلية. ترفض مـن الأسـاس، أو تطـرح للنقاش.

- وما الذي دفعك إلى هذا الضلال؟

[3] بيت شعر للمتنبي.

- لاشيء. لقد ثقلت الجرة على رأسي، فأسقطتها على صخرة، لتتحطم دفعة واحدة. ماذا تأخذ على حياتي هذه؟

- أقصد، مثلك. مثلك. يليق أن تكون أميرة بقصر، أو ربة بيت بدار كبيرة، أو أختا لخمسة أطباء، أو... أو ما شابه ذلك.

- هذا كل ما أستطيع أن أوفره لنفسي، فهل تستطيع أنت أن تحقق لي شيئا؟

- إنك لا تمانعين في الإصغاء إلى ما كنت أقول في البهو.

- أبدا لا. ماذا كنت تقول. أيها الجميل؟

- إن الأمة الإسلامية تدهورت.

- هذا صحيح.

- وأن كل الأمم نهضت.

- هذا صحيح.

- وأننا يجب أن ننهض أيضا.

- هذا صحيح. خذ هذه الكأس أيضا.

- هات. وأن نهوضنا يكون باتباع الإمام حسن.

- هذا صحيح. من هو هذا الإمام؟

- مصري يدعو إلى العودة إلى الكتاب والسنة.

- ومن يعارضه في ذلك.

- جميع الناس.

- أهوه. ليس من حقهم أنني لا أعارضه !

- وهل أنت مسلمة؟

- وهل تراني يهودية أو إيطالية أو فرنسية أو أمريكية؟

- لا، وماذا تفعلين إذن؟

- أشتغل. أبيع وأشتري، ككل عباد الله. أستبدل تحمل شخص، على بدني لدقائق، ببدلة اتصال، أستبدلها بدورها بنقود. بعضهم خفيف. بعضهم ثقيل. بعضهم، نظيف، بعضهم متسخ،

بعضهم صحيح، بعضهم مريض، بعضهم عاجز، بعضهم مقتدر، لكن كل البدلات سليمة. تعود بما قُدر لها من ثمن. اسمع. عندما تكون واقفا في موضع. على حافة جرف مثلا، ويهوي بـك ذلـك الجرف. من تلوم؟ هل تلوم نفسك، أو تلوم الجرف، أو تلوم من جعله يهوي؟ ماذا تقرأون في جامع الزيتونة؟

لم يجبها. راح يتمثل الصورة. جرف. اثنان. عشرة. ملايين، ملايين الأجرف، ملايين البشـر يقفون على حافات الأجرف. الأجرف تهوي. هم أيضا يهوون. المواقع تختلف، بعضـهم يغمـره التراب، بعضهم في أسفل سافلين، بعضهم مغمور النصف الأسفل، بعضهم مغمور النصف الأعلى. الجميع في الهاوية، والجميع ضد الهاوية. الجميع يسعون إلى فوق. الفوق كله أجرف.

ماذا إذن؟

ليكن كل شيء، بيد الإمام الآن. فما عساه يفعل. يُنشئ جيوشا من القضاة والعدول، والوعـاظ. يُنشئ جيشا من جباة الزكاة. يُنشئ جيشا من الجلادين، ومن الحراس. وماذا بعد ذلك؟

عليه أولا وقبل كل شيء أن يختار هو بالذات أي السبل يسلك.

ثم عليه بعد ذلك، أن يجبر الجميع، على اتباع ذلك السبيل.

سيكون وسيكون.

وسيقول رأيه في هذه الفتاة الآسرة. خولة أخت سيف الدولة. سيقرر مصيرها، ويعلـن عـن الطريق الذي يجب أن تسلكه.

أيها الإمام، بم تقنع الضالات في المواخير؟ ماذا تقول لهن. بأي مصير تتنبأ لهن. إنهن يقلـن لك إن كل ذنبنا، أننا كنا واقفات، مع الواقفين على حافات الجرف، وأن الجرف هوى بنا.

- زد هذا الكأس. زد.

قالت وأغلقت عليه الباب، بعد أن تسترت باللحاف الحريري الأبيض، وهي تودعه ابتسـامة، تتمنى من صميم قلبها أن لا تذوب أو تتلاشى مدى الدهر.

عادت بعد حين، ببدلة عصرية أنيقة، تتشكل من قميص أبيض، وربطة عنق زرقاء، وسروال وسترة داكنة الزرقة. وحذاء أسود، وجوربين أسودين.

- هدية من ابنة بلدك. إنك أثر جرح القلب، فلا تشغل نفسك بالتفكير في أمري. ستزورني كل يوم أربعاء. آهاه.

أليس كذلك. زمردة يبيت معي ليلة الثلاثاء. الإثنين عند الطبيب. الثلاثاء زمردة وما شـاكله، الأربعاء الزبائن قلائل. الخميس الزيتونيون. الجمعة عابرو السبيل. السبت والأحد طلبة الثانويـات والعساكر وبعض المتسوقين وما إلى ذلك.

- إنني سكرت.

- أغسل وجهك بالماء البارد. سأطلب لك قهوة. إقرأ، وحصل، وكن أعظم جزائـري. يـوم تكون مثل صاحبك الإمام، أكون في خدمك. أنظف حذاءك، واغسل قدميك، وأطعم كلابك... هـا ها. هيا انصرف ودعني، لقد كلفتني يوما غاليا.

عندما خرج، كان زمردة في استقباله بالبهو.

- أهلا. أهلا. سيدي العريس. العريس الجديد.

كان زمردة يتجلى من خلال العينين التعبتين، في الأربعين، قصيرا، نحيفا، زاخرا بالأعصاب والعروق الزرق، في حزامه هراوة غليظة، ثبتت في رأسها عدة مسامير. أسـمر، تكسـو لحيتـه ورأسه غشاوة بيضاء من الشيب، في عينيه قحة ممتزجة بذلة.

- أنت هو سيدي الشاب. العريس الجديد؟

إنه أشبه ما يكون بالكلاب الجبان الذي يكشر عن أنيابه، من شدة الخوف. زمـردة هـذا كلـب خائف. زمردة هذا سيهرب لأول رفسة يتعرض لها.

تقدم زمردة منه مزمجرا. اعترض سبيله، وراح يحدق فيه، بعينيـه الصـفراوين. حـاول أن يتجنبه. تشجع زمردة، وقدم رأسه من صدره أكثر. اجتنبه مرة أخرى، إلا أن يد زمردة تجـرأت، فارتفعت تمسكه من سترته:

- ألا تعلم أن العنابية زوجتي. أنا رب المقلاة هنا. وكل طريق نحو العنابية يمر بي أنـا. ألا تعرف هذا.

ارتفع سيف صلاح الدين. كانت إرادة صلاح الدين وحده، أقوى من السيف ومن الخصم. هوى السيف، سبقته النار. انطلقت النار من الصدر. احمر السيف قبل أن يمتزج بالدم. النار في صـدر صلاح الدين.

هوى زمردة. تساءل هل أنه كان مستعدا للسقوط قبل أن يلقاه، أم أن هذه الضربة من رأسـه، هي التي أتت عليه. انفرجت رجلا زمردة في الدرج، وانفتحت ذراعاه. كان أشبه ما يكون بجلـد عنز مبسوط.

شمخ برأسه. مر غير مبال. تجمعت النساء. راح أنصار زمردة يتأكدون مما جـرى. انفـتح الباب. خرج.

سأعود لزيارتها. سأقهر الجميع. زمردة والعين الزرقاء والإمام حسن، وأبي الحسن الأشعري.

بعد أسبوعين، عثر على زمردة والعين الزرقاء، وغلام مطعونين بخنجر واحد. لـم يتعـرف على القاتل، حيث لم تكن هنالك أية بصمات. ظن البعض أن الهزيين اقتتلا بسبب الغلام، أو بسبب اقتسام أموال مسروقة. إلا أن السلطة ألقت القبض على الطالب الزيتوني، الذي تـرك طربوشـه، وجبته وإضبارته وشيخ التجويد، والإمام حسن ليصير هزيا، يتبادل العشق مع غادة جميلـة، فـي ماخور.

حوكم واقتيد إلى كيان، حيث لم يكن أحد يظن أنه سيعود يوما.

جاري يا حمود حبر علي

انقضى السبت والأحد، دون أية مشاكل.

حياة النفوس خرجت مع القروي الثري، دون أن يتفطن إليها سوى حمود الجيدوكا. أما خاتم الهزية، فلم يبال، لم يهتم. لم يكن لديه الوقت الكافي ليسأل عنها.

لقد وقع فجأة في حب العنابية.

يطلب ستة. ترتفع أنات القصبة، تطلب جوادا في سرعة البرق. يصب الكأس في جوفه، ترتمي العنابية في أحضانه. ترتفع دقات البندير، تنبعث الأصوات من كل مكان، *أرواح أرواح وكي نشوفك نرتاح* . تهتز الأرض تحت ضربات رجليه. تبدو له من خلال الضباب، أصغر فأصغر. يسرع بها إلى جناحها. حالما تسترجع هيأتها، ينام في حجرها، يضع ثديها فوق لسانه، ويستسلم مغمضا عينيه. تروح أصابعها تعبث بشعره الأصهب. تروح الدموع تنهمر من عينيها. تتخذ قرارا في شأنه.

أشتري له عربة سوداء، كالتي يستعملها الحكام والقادة، وكبار الأغنياء.

لا، السيارة تفسده. الولد أهوج. مسكين صغير، والحالة صعبة. لا. السيارة تفسد الولد. أفتح له مطعما على شاطئ يكون مبنيا فوق صخرة ممتدة في البحر، بل، في جزيرة صغيرة، ليس فيها سوى مطعمنا ومسكننا. عندما لا يكون هناك أحد، أتربع على الرمل، في الشمس. يتمدد، أضع رأسه في حجري، وأعطيه ثديي، تنهمر الدموع من عيني، حتى يفيض البحر وتغرق الجزيرة. نتلاشى في الماء، فلا يقوى أحد على حصر مكاننا. سنكون جزءا من البحر. سنكون كل البحر.

أفتح له متجرا ضخما، يشتغل كامل النهار، ويعود إلي في الليل، أغسله بالماء الدافئ، وأعطره. أحمله إلى فراشه يبيت ثديي في فمه، وأبيت ساهرة.

- المعلمة فسخها ربي.

- أترين، في آخر عمرها تعشق.

- ومن تعشق؟ تعشق هزيا، يحب غيرها.

- رسم حياة النفوس الموشم في كتفه يسميه: خاتم الهزية.

- أترين. تسكره وتقوده إلى حجرتها.

- الولد الشيطان. لا يسكر إنما يتظاهر بذلك لا غير.

- أتعتقدين؟

- أفي ذلك شك؟ لابد أن النقود التي معه توشك على الفناء. إنه لا يشـرب إلا علـى ألحـان القصبة، ما رأيت هزيا مثله إطلاقا.

- إذا كان كما تقولين، فقد عثر على خزنة ذهب.

- يا أختي، والعالم ربي، يظهر أنها ليست غنية، كما يُظن. المرأة تنفق كثيرا، وتعيل أكثر من واحد. هذا حمود الجيدوكا، يتصرف كزوج، يأكل ويشرب ويسكر ويلبس، ويدخن.

- ويرقد أيضا، قوليها. أما زال يحبك.

- دعينا منه. لقد بدأت عينه تحول على هذه البلهاء. لست أدري لمـاذا لـم يسـموها مـوت النفوس. دعينا منه. قلت لك، وهذا الحاج كيان، يلبس، ويأكل ويشرب، ويفعل يوم السبت والأحـد، ما لا يعلم إلا الله به، لربما يقمر، ولربما يتهزز في مواخير أخرى. وهذا باي تونس البواب الذي يقال إنه تبعها من تونس، وأنه بدوره ورغم شيخوخته لا يزال يحبها.

- يا أختي أنا جديدة، هنا، ولا أعلم عنها سوى ما أراه. أما الذهب الذي في عنقها فـلا أحـد يستطيع أن ينكر وجوده. إنه كنز قارون.

- إنه كله هدايا. المعلمة هذه، عندما كانت في عنفوانها كانت تذبح وتسلخ الرجـال، بنصـف ابتسامة. لقد ذهب الحاج كيان من أجلها إلى كيان وعاد. هي التي أعادته. كان يحبها وإلا ما كـان يقوى على العودة. قل من يعود من هناك.

- ومن هو الحاج كيان هذا؟

- يا أختي العالم ربي، والأغلب على الظن، أنه عالم كبير من علماء جامع الزيتونـة. أحبهـا فقتل من أجل الظفر بها سبعة هزيين دفعة واحدة.

- الحب صعيب.

- والمشقة أصعب. وربي يسترها من خاتم الهزية هذا، لو كانت هذه البصلة، حيـاة النفـوس بحق، لما كان يهجرها بمثل هذه السرعة. هاهو عجل يصعد نحونا. الأخريات منشغلات.

- تولي أمره. أنا تعبة. حق ربي ظهري يكاد ينقسم.

ورفعت صوتها، تملأ الفراغ الذي أحدثه سكوت القصبة والبندير:

- وأنا وأنا قليلة الوالي، وأنا الوحدانية .

- إيه إيه يا علجية الفحلة، قومي بها. يزين سعدك.

هتفت العنابية، وهي خارجة من جناحها، تتأبط ذراع خاتم الهزية ، وتتظاهر بالسـكر، حتـى يشدها، أكثر، فلا تقع.

كانت جد راضية عن نفسها، وعن صانعاتها، وعن المغني والقصابين اللذين يرافقانه. وعـن حمود الجيدوكا وباي تونس، وعن كل الزبائن. كل سبت وبركته. وكل أحد وخيره. هـذه البنـت، حياة النفوس، كلها خير وبركة، فمنذ مجيئها ازدهرت الأوضاع. جميع الأوضاع، لشد ما تشبهني. إنها نسخة مني يوم كنت في مثل سنها، لولا بعض اللامبالاة والبرودة، لكانت أنا مكررة، لكـن لا يضير. جيل هذا الوقت كله قليل الطموح. بارد، هكذا أحسن والله. ربنا ورحمته. اللهفة هي التـي عكرت حياة الأولين.

الولد لي. سيلبس الحرير، ويركب السيارة، ويسكن الفيلة، ولن يذهب إلى كيان. ولـن يـرهن ذهب أمه مرة أخرى. قال، إن أمه في حاجة إلى مليون، سيكون المليون في متناولـه. مـا قيمـة المليون؟ لاشيء، خمسة قروبين، وخمس صانعات جميلات وهذا كل ما في الأمر.

- هات ستة هات.

وارتفع أنين القصبة ... *يا عين الكرمة وأعطني الأخبار.*

- اسمع يا حمود. خاتم الهزية، من الآن فصاعدا، يشرب بالمجان، هو ومن معه.

أي لعب تلعبه *المكاريرة* ، هذا الطفل خطير. لم يكتف بالصانعة، فتطاول على المعلمة. عمـا قليل، يطردنا جميعا، ويصفو له الجو. قواه منهارة الآن. الآن وإلا فلا، إذا ما لزم مساعداه الحياد، كما قدرت، وحسب ما بذلته معهما في غيابه، فسأرحي ضلوعه.

لكن إذا ما تخلى، عن البنت؟

يتخلى أو لا يتخلى، يجب أن يهجر الميدان. يجب أن ينمحي... إنك تريد أن تلعب دور الهزي مرة أخرى؟ وما يمنع؟ سأجد التأييد من الشرطة، بل، إنني أجده منذ وقت طويل، منذ عـدت مـن الأشغال الشاقة ! يقال إنها الآن تشغلهم من يوم ظهورهم. لقد أشار منذ قليل أحد مساعديه، إلى أن الولد الكلب، يلعب أدوارا أخرى في أماكن مختلفة لفائدة الشرطة.

لعل وجوده هنا، بسبب تقصي أخباري، أو أخبار الحاج كيان، أو باي تونس أو أي واحد آخر من رواد المحل. الآن أو فلا.

- يا معلمة، لو تستريحين قليلا.

- وهل تراني تعبة يا حمود الجيدوكا؟ أنت لا تعجبني اليوم. ما وراء رأسك الأشيب؟

- أقصد أن كثيرا من الزبائن يهربون بسبب.. إنك ترين كل شيء. فماذا تريدين أن أقول لـك أكثر؟

- *يا جاري يا حمود يا جاري دبر علي. الناس تبات رقود، وأنا النوم حرام علي* .

هتف خاتم الهزية ، يستفز حمود الجيدوكا. ضحك مساعداه. ضحكت العنابية بدورها. حـاول أحد القصابين أن يبحث عن نغم لائق. دق جرس الباب، دخل عدة عساكر. خرج حمود الجيـدوكا من خلف المشرب. راح يكيل ببصره خاتم الهزية، طولا وعرضا، وعلى شفته ابتسامة ساخرة.

- حمود. ماذا طرأ على عقلك؟

هتفت العنابية ملتاعة، جزعة. تراءى لها، بشعره الأصهب، بعينيه اللتين لا تستقران في نقطة معينة، بأنفه الطويل، بوجهه المستدير الجميل، ببسمته البريئة، بقامته الفارعة، بعضلاته المفتولـة، ملقى على الأرض، جثة هامدة. لا لا. حمود الجيدوكا كلب منيب، يعرف المقاتل، والولد صغير.

- حمود، هل نسيت عشرينتك؟ تذكر الأشغال الشاقة. إنها تعرف، أن كل الهزية الذين يقضون فترة طويلة في السجن أو في الأشغال الشاقة، يلينون، ما أن يذكروا العذاب الذي لحقهـم. حمـود هذا، لم يرتكب حماقة طيلة السنتين اللتين قضاهما معي. ما باله اليوم؟ أ يغار علي. لقد أحبني رغم اللقاء السريع الذي كان بيننا قبل أن يُلقى عليه القبض، لكن لم يتطور أبدا ذلكم الحب، حتى يتحول إلى عشق. لقد جاء إلى هنا بصفته، أحد المعارف القدامى في حاجة إلى شغل، وليس بصفة أخرى.

إنه يختلف تماما عن الحاج كيان.

- يا جاري يا حمود يا جاري دبر علي. الناس تبات رقود وأنا النوم، حرام علي. يـا عمـي الخياط. خيط لي جبة سورية .

- خاتم الهزية. لا. لا أريدك أن تتخاصم معه. إنه لا يمثل شيئا هنا.
- ولكنه هو الذي يهاجمني. أما ترين؟
- إما اليوم أو فلا.
- نعم. أو فلا. هل أنت رجل؟ أواثق من أنك رجل؟

ارتفع هتاف القصبتين إلى السماء:

كم غيمة، طافت وطافت ثم حلا لها أن تنزل غيثا. كم من رياح هبوب حملت السحساح، كـم من رعد واعد، ومن برق صادق. كم جلبت ربوتنا إليها وكم جلبت. مع ذلك، لما ينبت بها عشب.

الحاج كيان

تتالت المراحل، حتى تداخلت، وصارت الرحلة، رحلة وكفى.

هكذا دائما. عندما تتحول المرآة إلى بؤرة، تنعدم المراحل. ينعدم التمييز بين حدودها. وأروع حالة، يكون عليها المسافر، أن يتخلص من الشعور بالمكان والزمان، أن يتحول إلى دودة مستسلمة لالتهام جسم، بدل جسم مستسلم لدودة.

ينزل زمان الأزمنة. وتنزل أبدية الأبد، تتحول الجبة إلى حلاج، ويتحول الحلاج إلى جبة. إنها مرحلة التمثل. مرحلة المرور إلى خاتمة المطاف في الرحلة.

في تلكم الحال. تعود الكينونة. وتعود الماهية. ولا يبقى لزمن الوجود معنى. فمتى لـم يكـن الحلاج سوى ذاكرة، ومتى لم تكن الجبة سوى ذاكرته: ومتى لم تكن الذاكرة غير إفرازات.

عند ذاك، يتمدد الحاج كيان. لا أهمية للغليون. ينقطع الجسر أولا ينقطع. العودة ليست عليـه. لا دور لحلوى الترك أو للعسل. الربيع مزهر، والنحلة حرة طليقة، الديدان لا أهمية لهـا وعصـا عزرائيل بدون وزن.

إذا ما ضاعت الذاكرة. فمن أين يأتي الألم؟

ترعد أو لا ترعد. تمطر أو لا تمطر. تقصف أو لا تقصف. كل ما هنالك ممتزج في بعضـه. ويكون ولا يكون. ولا يكون ويكون.

ينام بعينين مفتوحتين. يبول. يتغوط. يبرد. يدفأ. لا يهمه في آخر الرحلة شيء. لقد جاء مـن أجل ذاك.

يفقد الضوء لونه. تفقد الظلمة لونها. تمر العشرون. يقال له في كيـان إننـا عفونـا عنـك، ومستعدون لإعادتك دون غيرك إلى موطنك. يحاط علما بمصير الإخوان. لا يبحث سـوى عـن العنابية. يعثر عنها بيسر لقد مهدوا له كل شيء.

يستيقظ الحاج كيان يوم الأحد في الساعة التاسعة صباحا. يستخرج من السـلة شـريحة لحـم مقلية، يأكلها، يستبدل تبانه وسرواله. يعيد ما كان إلى ما كان. يقذف بالحجرة التي ربطها بـالخيط إلى أعلى. يتثبت بأغصان التينة، يصعد إلى الصخرتين. يستريح قليلا ثم يستأنف رحلة الصـعود. عندما يجد نفسه في الأعلى، يبادر إلى سحب سلته، ثم يكور الخيط ويربطه بالعروة وينطلق مبتعدا عن الخق دون أن يتأمله أو يلقي عليه ولو نظرة أخيرة.

الخق في الداخل. في الرأس وفي القلب، ولا داعي لتأمله في مكان آخر.

ينزل إلى العين في أسفل المقبرة. يغسل تبانه، وسرواله. وينتظرهما قليلا، حتى يقطـرا مـن الماء، ثم يعيدهما إلى السلة وينطلق.

تكون الساعة العاشرة أو العاشرة والنصف. يذهب مباشرة إلى الحمام. تأتي الثانيـة عشـرة. يسرع إلى المسجد. يصلي عددا غير محدود من ركعات منفردات، قبل صـلاة الظهـر. يصـلي الظهر جماعة. يتناول المصحف. يضعه أمامه. ينطلق في الترتيل. يرتل الآية على قـراءة، ثـم يعيدها على قراءة أخرى، حتى يرتلها على كل القراءات. لا يتوقف إلا لأداء الصـلوات. يتعشـى تمرا ثم يواصل حتى الفجر. يغفو قليلا، ثم يستأنف بعد الصبح، حتى ترتفع الشمس. يغادر الجماعة التي تحلقت حوله. يمر على لبان، يأكل تمرا ولبنا، ثم ينطلق نحو الماخور.

- الحاج كيان جاء.
- جاء بهيئة جديدة.
- النور يشع من وجه الحاج كيان.
- أين كنت يا الحاج كيان؟
- أما كنت عند زوجتك وأطفالك؟
- أحقا كنت عالما من علماء جامع الزيتونة؟
- كيف تمكنت من النجاة من كيان؟
- وهل كانت العنابية تستحق كل ذلك؟

في تلك الساعة، عادة ما يكون المحل خاليا، إلا من النساء المنهكات. يجلس في البهـو حـول منضدة. يأتيه حمود بقهوة تركية مرة، يتسابقن إلى الاقتراب منه، وهن يتجاذبن المقاعد، ويمطرنه

بالأسئلة. يمد الحاج كيان يده إلى جيبه، عندما يكتمل جمعهن. يستخرج رزمة الحلـوى، يمسـكها ويروح يتأملهن، بينما يلزمن هن الصمت.

- من؟ من منهن تكون صاحبة الشيء اليوم؟

إن صاحبة الشيء التي تستلم القرطاس منه، وتتولى توزيعه على الفتيات، تكون هي مضـيفته تلك الليلة. تكون هي ملكة المحل. كلهن يتقن إلى استضافة الحاج كيان، ولئن كانت الوهرانية، هي في الغالب، صاحبة الشيء، فإن الحاج كيان، يفلت مع ذلك من أسبوع لآخر، ويتحرر. يكون حرا لواحدة منهن. يُتوجها، ويبيت عندها. يبيت في غرفتها. سواء كأب، أو كزوج، أو كأخ. الحاج كيان وحده يفرض رغبته، ولا أحد يستطيع أن يفرض عليه وضعا.

- أين حياة النفوس؟
- غائبة. غائبة لأيام عديدة على ما يظهر.
- وأين حمود؟ لِمَ لم يأتني بقهوتي !
- حمود مريض. هاهي علجية تعد لك قهوتك.
- وأين العنابية؟
- العنابية في جناحها.
- هكذا إذن؟

أعاد رزمة الحلوى إلى جيبه. تبادلت النساء النظرات. جاءت علجية بالقهوة، مترنمة أنا قليلة الوالي. أنا الوحدانية.

ترددت أصوات النساء التسعة عشرة. وأنا وأنا . اكتمل التقاء أصواتهن في نغمات واحدة من اللحن، امتلأ المكان بالأنين. كان أنينا يحمل شحنات مختلفة. هناك ألم مبرح. وهناك شوق عـارم. هناك وهن بالغ، وهناك يأس مطبق.

كانت البسمات على وجوه بعضهن، لكنها كانت بسمات كاذبة. كانت عيونهن مـلأى بـدموع تتمنى الانطلاق.

- أعطنا الحلوى يا الحاج كيان.
- أعطنا يا سيدي الحاج.

قطعت علجية المناحة. سُر الحاج كيان لذاك. احتار لمن سيمنح رزمة الحلوى. مـن سـتكون صاحبة الشيء اليوم؟

- أين العنابية؟ ليس من عادتها أن تتخاف عن استقبالي.

- إيه. *من يتفكرك يا الرغدة*[4] *يوم العيد* ؟

قالت الوهرانية، وقد ساءها أن لا يبادر إلى جعلها -كالعادة - صاحبة الشيء. يطول به الأمر، وتأتي الجمعة، ويصعد من تلقاء نفسه. لن أُعد له، لا جوزا ولا لوزا ولا شايا. سأُعِد هـذه المـرة قارورة أنيزات وأسقيه. أسكر في حضرة الحاج كيان، واسأله ألف سؤال وسؤال. هل يحبني؟ ماذا يعجبه في؟ هل ما زال يحب العجوز العنابية؟ هل له منزل وزوجة وأطفال؟ أيـن يـذهب يـومي السبت والأحد. إذا لم يجبني، أبكي، وأبكي حتى يفعل...لكن أنا هل أحبه؟ ومن لا يحـب الحـاج كيان؟ لا. لا. ليس الحب العادي. إنما حب الروح للروح. حب الموت. حب كيان. حب الحاج كيان للعنابية.

- اسمعن يا عاهرات. الوهرانية تعشق الحاج كيان. الوهرانية تموت في حب الحاج كيان.

رفعت الوهرانية صوتها، تعلن بانفعال. رفع الحاج كيان بصره إليها. حاول أن يرى ما خلـف جبهتها السمراء. قهقهت النساء، وأعلن بعضهن:

- ومن يجهل ذلك؟

بينما أعلن البعض الآخر:

- أيتها الغبية. من لا يحب الحاج كيان منا.

في حين أكدت علجية:

- أيتها الغافلات، ليس الأمر، من التي تحب الحاج كيان؟ المسألة كلها هي، من يحب الحـاج كيان؟

- ما هذه الضوضاء؟

خرجت العنابية من جناحها تترنح سكرا وإجهادا، تساءلت باحتجاج. إنها تخشى كل تجمع. لقد كان تجمع البارحة خطيرا:

[4] -خبز الشعير.

تقدم حمود الجيدوكا يريد، خاتم الهزية. كان الشر يتطاير من عينيه. شر لم تره في عيني أحد، منذ زمن طويل. تجمع الزبائن وبعض النساء. كان الجميع - عداها- واثقين من أن خاتم الهزية، سيفعل بحمود الجيدوكا، ما فعله بالبوكسور. لا يعلم المرء أين يكمن الشر. والتجربة الطويلة علمتها أن لا تحتقر أحدا مهما كانت قيمته. إن هناك دائما وأبدا، في قرارة المرء، في آخر جرابه، شيئا يقوله في اللحظة الأخيرة.

- هيا أخرج هنا أيها الطفل. ستتعلم كيف تحترم حمود الجيدوكا في المستقبل.

أسرعت إلى جناحها، أحضرت هراوة. وقفت خلف حمود الجيدوكا وهوت على رأسه، هاتفة:

- لن أسمح لأحد بالنيل منه. هاك يا كلب. شبعت خبزا في ظل العاهرات. بهت الجميع. أسرعت علجية تجره إلى المشرب. عادت مسرعة إلى جناحها. وظلت تزمجر. قال خاتم الهزية لمساعديه:

- هيا نخرج. لبثنا أكثر مما يجب.

- آه. هذا أنت يا الحاج كيان.

- نعم أنا. اليوم الإثنين. هاك رزمة الحلوى وزعيها. أنت صاحبة الأمر اليوم.

- لا حلوى ولا صاحبة الأمر ولا عليهم يحزنون. أعطها لواحدة من العاهرات. أنا مريضة.

- *حالي مضرور يا بوطيبة عجل داوني* .

صدحت علجية. ضحكت النساء ضحكة مرة. ما كان يليق بأحد أن يمس بكرامة الحاج كيان. المرأة هبلت بحق.

- هاتها هنا. احترت في توزيعها.

تجرأت الوهرانية وانتزعت رزمة الحلوى. فهمها الجميع. حتى الحاج كيان فهمها. حتى العنابية، التي استشعرت حجم فعلتها، فراحت تبحث عن عبارات اعتذار.

- لن أسمح لنفسي بالرحيل إليها مرة أخرى.

قال في سره، ثم قرر أن الأمر ليس بيده. لقد تمثل للمرة الأولى منذ سنوات طويلة نفسه، ولم يكن ينتظر ذلك أبدا. لو كانت البنت حياة النفوس هنا، لكانت هي صاحبة الأمر، فهي نسخة طبق الأصل لها.

- هيا معي إلى جناحي يا الحاج. أريدك في مسالة جد هامة. تعال.

جرار القطران

- أنا مجنونة يا الحاج كيان. مجنونة طولا وعرضا. لم تبق في ذرة غير مجنونة. يا الحاج كيان لم يعد ممكنا أبدا، إنقاذ الجرة. لقد ملأوها قطرانا، وصعدوا إلى قمة جبل صخري، وقذفوا بها. إنها لابد أن تنكسر. كان لابد أن تنكسر. وهذه المرة ستكسر لا محالة.

أتذكر شيئا من ماضينا يا الحاج كيان؟ يومذاك كنت أحبك. أحبك بحق. كنت عمياء بحبك، لا أرى من العالم سواك. كان ذلكم الحب، طبيعيا يا الحاج كيان، كان حب فتاة في العشرين بئيسة شقية، لشاب قوي كريم الخلق، كنت الحياة الخارجية التي افتقدتها. تعلقت بك لأجد فيك نفسي.

لكن جنوني اليوم، ليس له مثيل إطلاقا يا الحاج كيان. أكثر من جنون البنت. وأقوى من جنون المرأة. إنه الشيء الذي يعوزني طيلة الخمس والعشرين سنة من حياتي الشقية هذه.

عندما يكون معي، ويكون ثديي في لسانه، أود. أتدري ماذا أود لحظتها أن أكون؟ سحابة، تطوف في السماء، بحثا عن حقل برتقال ظامئ، لتنزل غيثا يسري في العروق.

إنه يحملني بين ذراعيه، يرقص بي، يقبلني. يدخلني إلى غرفتي، يقذفني على السرير، يمتزج بي من أعماق قلبه، ثم يضع ثديي في فمه، ويستلقي على ركبتي، وينام.

ها ها ينام. ورأسه فوق صدري.

ينام.

ينام وثديي بين شفتيه، وأنا أبكي.

أبكي كما تبكي السحابة فوق حقل برتقال ظامئ.

سأشتري له البذلات الثمينة. يخرج كل يوم ببذلة وقميص وحذاء. سأشتري له سيارة. سأشتري له قصرا، سأملأ جيوبه بالنقود. أتدري ماذا فعلت قبل أن تحضر؟ رهنت فيلتي وعدت. رهنتها

وأعطيته المبلغ، وها أنني هنا. أنا في حاجة إلى نقود أكثر. إلى مزيد مـن النقـود. لـن تكفينـي عشرون عاهرة، ولا عشرون بيتا، لن يكفيني سكان هذا البلد. لا جيشها ولا طلبتها، ولا عمالها. لا أريده يشعر بالحاجة أبدا. أبدا.

آه. إنني جد متعبة. لم أنم ليلة الأحد. لم أنم البارحة أيضا. لم أتوقف عن الشراب. هأ هأ هـأ. إنه سيقيني بيده.

- هذا خاتم الهزية ولاشك.

- ومن يكون غيره يا الحاج؟

- وأين حياة النفوس؟

- أوف. حياة النفوس مسكينة لا يهمها شيء في الحياة. إنها مع فتى قروي فـي فيلتـي. آه، ذكرتني. هاك هذا الوصل لتستعيد الحلي الذي فيه. لقد رهن المسكين حلي أمه، ليجد مـا ينفـق. تصور الزمن الغادر. هاك المبلغ أيضا. استرد الحلي، واذهب إلى أمه في أول فرصة تتاح لك يـا الحاج يا أخي.

- هكذا إذن؟

- لا. لا تقل شيئا آخر. أريد أن أسير عمياء حتى أقع في الحفرة. كم هو جميـل، أن يطـول انتظار سائرة عمياء مثلي. للوقوع في الحب. تنتظر وتنتظر، وتحاول أن تيأس فلا تقوى. إن التي تفتح عينيها في مثل هذه الحال، غبية بليدة، وأنا، أقول لك الصح، ظلت عيناي كثيرا مفتوحتين. لم أغمضهما أبدا، يا الحاج، منذ افتقدتك. تجمعت لدي مبالغ كبيرة. حصلت على ما شئت من الذهب والجواهر. اشتريت هذا المحل، قبل أن أبلغ الأربعين. اشتريت فيلة.

ولكن ماذا بعد كل هذا؟

إن جرة القطران، يجب أن تتحطم ذات يوم. كل جرة مصيرها الانكسار والتحطم. لن أتخلـى عنك يا الحاج. ستظل بقدرك واحترامك. ستظل سيد الدار.

- وماذا في إمكاني أن أقدم لك؟

قال الحاج كيان، متكلفا بالهدوء. لم تتفطن العنابية إلى السخرية التي لفظ بها جملتـه، أو إلـى السحابة السوداء التي خيمت على ملامحه. الولد شيطان رجيم. كلب. هذا الولد لص وليس هزيـا.

حاشى أن يكون الهزي من هذا النوع. سيطر على حياة النفوس بالقوة. ربما يكون عراها، قبل أن يعري أمه. ربما هذا الذهب المرهون لها، وليس لأمه كما يدعي. ربما لا يعـرف أي أم إطلاقـا. هاهو يبلغ النبع. يستولي على المعلمة، ويتمكن في يوم وليلة من رهن فيلتها. سينفق بسرعة هـذا المبلغ. ربما ينتزعه منه آخرون. أكيد ذلك. هذا الولد، لا يكون إلا عضوا في عصابة لصـوص. بعد غد يستولي على ذهبها. بعد ذلك يرهن المحل. آخر الأمر، يهجر المحل، إلى محل آخـر، أو ينتقل إلى مدينة أخرى.

- أريد نقودا. نقودا كثيرة جدا يا الحاج كيان. أريد أن لا تنقطع علي النقود إطلاقا. لابـد أولا من استبدال العاهرات كلهن عدا حياة النفوس والوهرانية. أنت مكلف من الآن بالبحث عن ثمـاني عشرة فتاة في جمال حياة النفوس. أريد أن أجلب كل الأعيان إلى محلي. أتفهم يا الحاج كيان؟ أريد أيضا، أن تبحث لي عمن يأخذ مكان حمود الجيدوكا. أريد أيضا، أن تصبح مـدير المحـل. فأنـا سئمت الجدران والعاهرات والعسكر والطلبة، والهزية، أريد أن أركب إلى جنبه، عربة رياضـية مكشوفة، أو قاربا أبيض، وشعري مشدود بمنديل وردي، ونظارات سوداء على عيني. وننطلـق. ننطلق دون توقف. لا أتمنى شيئا غير أن نرتطم بصخرة قوية، فتضطرم فينا النار، ويصعد الدخان ليمتزج بالسحاب، وينزل مطرا يلمس كل شبر من الأرض. أو تبتلعنا موجة عارمة، فمعطي إلـى كل قطرات ماء البحر، شيئا منا.

- نستطيع للشروع في تنفيذ مشروعك الكبير هذا، أن نقيم عرسا.

- أوه. عرس. أوه عرس. يرحم ذاك الفم. نسيت العادات والتقاليد يا الحاج كيان. عرس بغل. ستحضر عنابة وقسنطينة وسطيف والأغواط والجلفة والأصنام ومليانة. هذه جميعا شـاركت فـي أعراسها، بأجمل البنات اللاتي كن في محلي، وبكل الأعيان الذين كانوا في قبضة يدي. علينـا أن نتصل بالجميع. من الشرق إلى الغرب، وستكون المشاركة في عرس بمحل ذي ستة أبواب مثـل محلي هذا شرفا للجميع.

- سيسر الكثيرات، طاب النقلة إلى هنا. لقد فكرت في هذا.

- تعال أقبلك يا الحاج كيان تعال. يا حبيب العمر. يا من لا يستطيع أحد أن ينزله من عرشه. تسافر أنت إلى الشرق، وأسافر أنا وخاتم الهزية إلى الغرب.

- اسمحي لي يا المعلمة. أنا لا أستطيع أن أكون بعيدا يومي السبت والأحد.

- أوه. السبت والأحد. أنا أيضا لا أستطيع أن أكون بعيدة. في إمكانك أن تتفرغ لي يا الحـاج سبتا أو سبتين. إنني لم أسألك أبدا، أين تكون في هذين اليومين.

- لا يفيد ذلك كثيرا يا عنوبة، كلنا تلك الجرة الملأى بالقطران.

- البنات يقلن إنك تكون مع أطفالك وزوجتك.

- البنات المسكينات خيالهن عن الحياة الخارجية جد خصب يا عنوبة. أنت الوحيـدة تعـرفين ماضي وتكويني.

- هيا دعنا من الذكريات الميتة. وهات ما عندك من أمور العرس.

- أنت تعرفين الأصول.

- نعم. يجب أن يكون هناك حج. أو ختان، العرس يجب أن يكون له وجـه حقيقـي. ومـن يعارض ذلك؟ لنقل مائتين.

- لا نقل شيئا. *لا يحسب إلا الشيطان*. موسم الحج فات. وحينئذ لم يبق أمامنا سوى الختـان، الفقراء كثيرون، وأبناؤهم يملأون الدنيا.

- تتفق أنت مع من تتفق، بسرعة يا حاج. وترتب الأمر بعد ذلك.

- أعتقد أنه في إمكاننا، أن نوجه استدعاءات كتابية إلى جميع الأماكن، ونستعمل الهاتف، كلما كان ذلك ممكنا.

- تول كل الأمر. أنا علي الإنفاق، وأنت عليك إقامة عرس بغل لم يشهد تاريخ المواخير مثله.

- علي وعلى ذراعي.

قال الحاج كيان، ثم خرج. طلب الوهرانية وعلجية، أفضى لهما ببعض الأسرار، وطلب منهما بعض الإيضاحات، ثم انطلق.

اتصل بصاحب الحشيش الذي يزوده كلما احتاج. أفضى إليه بأمر العـرس. وعـده بالإجابـة القاطعة في المساء.

في المساء، قال له:

- بدل أن يختتن ولد واحد في أسرة فقيرة، لماذا لا نجمع أقصى ما نقدر على جمعه من أبناء الفقراء، ونختنهم باسم محسنة؟ نتفق مع ذويهم على إحضارهم في يوم معين. نتفق مع طبيـب أو مستشفى، أو ختان. نشتري للأطفال، ببعض المبلغ هدايا وربنا ورحمته. أقيموا أنتم العرس الـذي تودون في ذلكم اليوم. لقد تمكنت حتى الآن من الحصول على موافقة عشرين أبا. وأنا متأكد، من أن الرقم سيتضاعف نهار الغد. أربعون طفلا عدد لا بأس به. إن معظم البلديات لا تتجـاوز هـذا الرقم في أحسن أحوالها... بين المائتين والمائتين والخمسين. أنت إقرأ حساب الظروف الخارجـة عن الحساب. وأنا علي حسن التصرف.

- هل يمكن لي أن أستوضح أكثر. أنت تعلم أن أمور النساء صـعبة. الولايـا. لا ينبغـي أن يشعرن بأدنى غبن.

- أنا أفكر هكذا: دجاجة بألف على أقصى تقدير. عشرة كيلو كسكس بألف. سكر وقهوة وزبدة بألف. جبة للطفل بألف. يمكن أن نحصل على بعض التسهيلات. يمكن أن يكون عدد الأطفال أقل، يمكن أن يكون أكثر. مائتان. مائتان وخمسون كما قلت لكم. لا نكون أحسن من البلديات. هذا هـو أسلوبها في التبرع بالختان.

- ليكن.

قال الحاج كيان، معلنا عن التزامه باسم موكلته، وقصد رأسا المطبعـة. سـتكون أول دعـوة كتابية. سأطلب كتابتها بماء الذهب. الأمور تكون منظمة، مدققة.. إلى السيدة فلانة. بمحل كـذا... يسر السيدة العنابية، صاحبة محل كذا. أن تدعوك لحضور العرس الذي ستقيمه بمحلها يوم كـذا، بمناسبة ختان أربعين طفلا. أبناء الفقراء والمعوزين . يكون الاستدعاء بـأربع لغـات. الفرنسـية والإسبانية والعربية والإنكليزية. نرسل منه حتى إلى أوروبا. يجب أن يكون أعظم عرس. لـم لا؟ محل بستة أبواب. فيه عشرون غرفة. صاحبته، لا تزال تنحدر إلى العالمين في العشق.

من سكر يتمم سكرته. ومن سهر يتمم سهرته.

يدوم العرس خمسة أيام. من الإثنين إلى الجمعة. يجب أن أحضره كاملا. لا يليـق. بـل، لا يمكن، مهما كان الأمر، أن أتخلى عن السبت والأحد.

الخلوة تعيدني إلى نفسي. تمدني بالحياة، وتربطني إليها.

- بعد خمسة عشر يوما يكون العرس. كل شيء جاهز. أعدي نفسك للأسبوع العظيم. تمـولي بالخمور، والكحول، من الآن.

العرس عرس...وإن كان عرس بغل...

لأول مرة، في حياة الحاج كيان، تنقضي الأيام دون أن يشعر بها. يمـر الاثنـين والثلاثـاء والأربعاء والخميس، وتأتي الجمعة ولا يتفطن إلى ذلك.

كانت الأشغال كثيرة جدا، وعقّدها أكثر الهاتف، فبالإضافة إلى أنه لا يحسن جديا اسـتعماله، يندر أن يجد صاحبة محل في موضعها.

من يطلبها؟

من أين؟ انتظر، إنها منشغلة مع زبون! وأنت من تكون؟ أهاه معلمتك غنية حتى تستعمل كتبة وموظفين. نحن هنا منشغلات، بالذباب. هل عندكم فراغ؟ كم عمرك؟ متى تـأتي المعلمـة؟ بعـد نصف ساعة أحيانا، وأحيانا بعد ساعة كاملة. تثرثر بدورها، كأنما تتكلم من قعر بئر، أو تسـتيقظ من نوم سنة كاملة.

- اليوم الجمعة يا الحاج.

قالت الوهرانية مبتسمة. تعمدت أن تقف قبالته، وأن تلفت نظره إليها. سمراء. طويلـة. كـل شيء فيها مستقيم منسجم وجذاب. حيوية. مرحة.

- من أين عدت؟
- اليوم الجمعة يا الحاج. أهكذا تنساني بسرعة. اليوم موعدنا مع الطبيب.
- شغلني هذا العرس، وهذا التيلفون.
- *آخر عرس يعري* كما يقول حجا. ألم تنته منه بعد؟
- هذا المساء أضع الاستدعاءات في البريد، وينتهي كل شيء بالنسبة لي أنا. تبقـى بعـض أمور خفيفة، في الإمكان الانشغال بها نصف يوم ليس غير.
- اليوم الجمعة يا حاج. أنسيت؟ هل تريد نقودا؟ لقد وفرت المبلغ، هل تريده.
- لا يا بنت الناس هذا السبت لا أحتاج.

شعر بالعطف عليها. شعرت باعتزاز كبير لاستعماله معها هذا التعبير: بنت الناس. كان أبـي يستعمله مع أمي عندما يكون راضيا عنها. عندما يريد أن يعبر لها عن مسؤوليته نحوهـا. لعلـه أيضا، يريد أن يشعرها بأنها محللة له.

- وهل تريد أن أُعد لك شيئا معينا؟
- اجمعي لي ما تستطيعين من أخبار صاحبنا. اشتري لنا دجاجة محمرة.
- ونبيذ؟
- ونبيذ أيضا.
- لا تتأخر يا حاج.

انصرفت. تبعها ببصره. اختفت. انبعث صوت علجية هاتفا *أنا قليلة الوالي* . دق الجرس. رن الهاتف. طلبت الأغواط. إليك الأغواط. لا تقطع .

دخلت المعلمة، مرهقة، كأنما كانت تركض. تساءلت:

- أين وصلت يا سي الحاج ؟

كان في صوتها جفاف بين. شعر الحاج كيان بذلك. وفهم السبب. لقد طلب منه اللاص أمس أن يحضر له قارورة بيرة، فلم يلب طلبه. وقف. تأمله من حذائه إلى شعره الأصهب المروي بالدهان. ولم يجبه، خفض بصره ولم يكرر طلبه. يريد أن يختبرني ولاشك. لو لم يكن نذلا، لكرر طلبـه، ولما شعر بأي مركب نقص.

- إنني أسألك أين وصلت يا الحاج؟
- إنني في الأغواط. عندما أنهي هذه المكالمة، أكون قد تحدثت مع كل المحـال التـي بهـا هاتف.
- والاستدعاءات؟
- هذا المساء تنطلق. هل أوجدت المبلغ؟
- طبعا أوجدت المبلغ. ومتى قلت إنني إبحث عنه. سيمر بك خاتم الهزية بعد قليل ويسـلمه لك. غدا تذهب إلى الفيلة وتحضر البنت حياة النفوس، حياة النفوس. ذهبت ليومين فبقيت عشرة. لا تنس أن تطلب من القروي المبلغ المترتب.

- غدا السبت.
- أوه. غدا السبت! غدا السبت. سئمنا من أسباتك هذه !
- غدا السبت، وبعد غد الأحد، عنوبة، ألم نتفق على أن لا يتدخل أحد منا في شؤون الآخر؟

فكر أن يقول لها إنه مستعد لمقاطعة المحل نهائيا. لقطع حلم السنوات الطويلة في أن يعيش قربها. لم يكد يعرفها بتونس، حتى فُصل عنها، وظل يحلم بالعودة إليها. ظل يحلم خمسا وعشرين سنة بلياليها وبأيامها، وعندما عاد، لم يجد إلا اسمها، أو فضلها، وهو لا يزال ينتظر عودة البنت، التي حملته من رجليه، مستعينة بزميلاتها إلى غرفتها، وشقت قلبه بعينيها الجميلتين، ووضعت فيه حبها. استطاعت أن تزعزع جامع الزيتونة بسواريه وبمشائخه وبفقهه ونحوه وصرفه وتجويده، وتحوله إلى هزي، يحج إلى كيان.

لكن لا.

الولية مريضة، وسينقشع الضباب الذي يغلف عينيها وترى الحقيقة. الولية مسكينة، تودع آخر ما فيها من أنوثة وأمومة.. وإنسانية في مثل هذا الجو بالذات يجب أن يفهم المرء ظروف غيره بالتدقيق. إن عري أجساد، هاته الولايا، يعكس عري واقعهن أيضا. ليس لديهن ما يخفينه. وكل من يأتي إلى هنا، ليس لديه ما يخفيه، في لحظات معينة. طيلة لحظات تواجده.

- احبابنا يا عيني بالروح جاروا علينا .

قطع الصوت حبل الخواطر المتدفقة في ذهن الحاج كيان. رفع بصره يبحث عن العنابية. لم يجدها. جاء الصوت من الأغواط يقدم له المعلمة: سآتي وسأرقص بنفسي في عرس أحبابي. سيأتي معي سرب من غزلان وظباء الصحراء. سلم على العنابية .

جاء خاتم الهزية، ينظر إلى الجدران الأربعة في وقت واحد، وقف قليلا، ينتظر أية حركة ستصدر عنه. ظل الحاج كيان ثابتا.

- وكم هو هذا المبلغ؟
- مائتان وثلاثون ألف فرنك.

كان ينتظر أن يسأله، كيف لم تخبره المعلمة، فينهره ولو بلطف عن التدخل في أمور خاصة بينه وبين المعلمة لكن اللعين ذكي، يستطيع إخفاء عواطفه في الوقت اللازم.

- ألا ترى أنه كثير جدا. العرس أولا وآخرا، عرس بغل.

لم يجبه. لم يحن أوان الاصطدام به بعد. من أجلها، من أجل المسكينة، يجب أن لا يصطدم به هو. الجرة ملأى بالقطران، لم تنكسر بعد، ولتأخذ نصيبها من الارتطام قبل أن تنكسر. هي التـي تقول ذلك. هذا ما أعطاها حظها، فلتنعم بما أوتيت. لكن اللص الكاب، سيتلقى الدرس الـذي لـن ينساه. سيتعلم معنى اللعب عند أنف الحاج كيان.

- أربعون ولدا سيختنون. والعرس عرس، وإن كان عرس بغل. ما كنت أظن أن هزيا مقـبلا على الوسط، يستكثر المبالغ التي تخرج من جيبه.

- أنت صعب يا الحاج كيان. هأ هأ هأ، يجب أن تكون من أتباعي حتى أستفيد من تجربتـك الكبيرة.

لم يجبه. ظل ينظر إلى يديه، أخرج المبلغ. كان معدا في غلاف رسالة. فهم الحاج كيـان، أن العنابية هي سلمته له. وأنه ليس من ثمن رهن الفيلا.

عندما وجد الحاج كيان نفسه في البهو، لفت انتباهه رنين غير عادي لجرس الباب الخـارجي. أسرع باي تونس متعثرا، فتح الباب. ملأته حياة النفوس. انتزعت اللثام عن وجهها، ثم اللحاف. كانت فرحة. فرحة أكثر مما يجب بالنسبة للجو العادي.

- أنت هنا يا حاج. اشتقت لك كثيرا. اشتقت لكم جميعا !

رفعت صوتها في البهو، وهي تتقدم بخطوات عجلى نحوه. تجمعـت النسـاء فـي شـرفات الطابقين. رحن يثرثرن حولها بمختلف التعليقات.

- احبابنا يا عيني. رحنا وراحوا عنا. ولا حد منا انتهنا. عيني يا عيني .

امتلأ الجو بكلمات الأغنية، عانقته. أمسكت بيده، وراحت تضغط عليها.

- هيا معي إلى غرفتي. عندي ما أقوله لك يا حجوجة. كيف أنتن يا بنات؟

- وأنا وأنا، وأنا الوحدانية. أنا قليلة الوالي .

- وأنت يا حياة. لم تسألي عن خاتم الهزية.

إنها هي. هي بالذات، نفس القامة. نفس الشعر. نفس الهيئة. نفس العينين. نفس العنق والصدر والخصر.

هكذا كانت العنابية، قبل خمس وعشرين سنة.

عندما خرجت من برودتها. صارت هي. لا حول ولا قوة إلا بالله. لو لم تمت العنابيـة فـي ذاكرتي، ولم تخْب جمرة حبها في صدري، لما كنت أتجاهل حتى الآن وجود حياة النفوس هنا.

إنك لم تتجاهلها.

لقد لاحظت ذلك منذ اليوم الأول لدخولها هنا. بل إن قلبك اهتز يومذاك. لكنك قلـت: اللعـب معها لعب بالنار. وزمن اللعب بالنار ولى وانقضى. كنت تسخر من باباي البوكسور، لأنه عشقها. كان في نظرك زمردة الثاني، ينتظر من سيدق أنفه. لقد قنعت بها طيفا. خولة أخت خير أخ وابنة خير أب. لقد تقوقعت على نفسك مرة أخرى. الأشعري، وحسن البنا، والمتنبي، وطالب التجويـد، ينبعثون فيك من جديد. لا. لقد ماتوا جميعا. ماتوا في كيان، بل في الطريق إليه.

- آه جئت يا بنت. هل أتم لك باقي المبلغ. اتفقنا على أربعة أيام، وها أنت تبقين قرابة أسبوع. كم ليلة قضيت معه.

- لم أعدّ يا معلمة. سيأتي إلى هنا، مساء هذا اليوم، أو صباح غد.

- هل وقع يا بنت؟ من يكون؟ هل لديه نقود كثيرة بحق؟

- لم أسأله يا معلمة. هيا يا حاج معي. أريد أن أستشيرك.

برز خاتم الهزية من جناح المعلمة. أبصرها. وجد نفسه ينقاد نحوها. أمسك بذراعها. ضـغط عليه قليلا، وسأل محتجا:

- أين كنت يا بنت كل هذه الفترة؟

- ألم تقل لك المعلمة. كنت أشتري هذا العقد اللؤلؤي. أنظر !

- ماذا؟ هاته.

- لا. هذه هدية. الهدية لا تباع ولا ترهن. أوه بذلتك أنيقة اليوم. كلك أنيق اليوم يا ختومة.

- اصعدي إلى غرفتك يا بنت. تعال يا خاتم الهزية نر أين وصلت مسألة السيارة.

وأحبابنا يا عيني بالروح جاروا علينا.

تردد خاتم ثم انقاد. وضع الحاج كيان يده على كتف حياة النفوس وصعد معها إلى غرفتها.

الكائن الكلي في البعد الكلي

حافات الخق تتحرك. السماء الزرقاء بدورها تتحرك. أغصان التينة تتحـرك. المسـافات تأخـذ حجمها. إنها ليست ببعد واحد.

عيوننا أسيرات بعد واحد.

تنزل السماء وتنزل، حتى تسد الخق. كل ما فيها في متناول اليد.

لكن واأسفاه ! ليس فيها سوى البعد.

تروح ترتفع شيئا فشيئا، حتى تنعدم. تنعدم نهائيا. بلا سماء نكون على وضعنا الحقيقي.

غرباء وسط الفراغ والعدم.

تلتقي الأبعاد كلها، ويتشكل البعد الكلي في الزمن الكلي وفي الكائن الكلي. ما اليوم والليلة؟ ما الشهر والسنة؟ ما القرن والدهر؟ لولا خدعة الموت لما كان لذاك معنى. الموت نفسه. لولا خدعة الرؤية الفردية، لما كان له أي معنى. في آخر البعد، ليس هنالك سوى الكائن الكلي. الخق يعرض ويعرض.

هكذا تبدأ الرحلة. وهكذا تتواصل.

الجسد المرمري ينتصب في موضعه.

- لم أحب. لم أحبب واحدا بعينه. كنت أنتظر قدومه. أردته فوق مستوى البشر. في مسـتوى الحلم. ولم يكنه.

- أبو الطيب المتنبي لم يكن في مستوى الحلم؟

- لا. أبدا.

- تقولين. ألم يكن أبو الطيب المتنبي شاعرا وفارسا، ومغامرا؟

- بلى. ما قلت ذاك:

- ماذا إذن؟

- كن لئيما، خاوي النفس. لم تكن عيناه تستقران في مكان واحد. ما كان المتنبي يقوى على التحديق في شيء، حتى ذاته لم يكن يحدق فيها.

- وهل كان ينظر إلى الجدران الأربعة في الآن الواحد.

- هو ذاك.

- هو ذاك إذن يا خولة. لو لم يكن نذلا، لحافظ على قرمطيته. على الأقل، ما كان يوجه لهم الشتم.

- وكما جئت عدت.

انهمرت الدموع غزيرة من عينيها، رق قلبه. لانت أحاسيسه. امتلأ صدره بالحسرة. امتلأت عيناه بالدموع. أجهش. ارتفع بكاؤه. عظمت الغصة في حلقه. امتد أصبعه إلى حلوى الترك. راح لسانه يلهس. أُعِد الفراش الحريري، صعد إليه، أخفى رأسه تحت الوسادة وواصل النحيب. أسرعت إليه. رفعت رأسه. ضمته إلى صدرها. أخذت شيئا فشيئا تسري في كيانه.

تحقق الكائن الكلي.

عندما فتح عينيه. وجد التينة تتحول إلى ديدان في حجم الثعابين. امتصت مخ الفتاة، ثم وجنتيها، ثم ثدييها.

تفسخت وبقي الهيكل العظمي متماسكا بلا شيء. أقبلت الديدان عليه. اعتراه الرعب. حاول الفرار. حاصرته من كل جانب. استسلم. وثبت إلى مخه. سرت في شرايينه. لم يبق منه سوى الهيكل العظمي.

الدخان يتكاثف. الرحى تنصب. الفك الأعلى يدور من اليسار إلى اليمين. الفك السفلي يعاكسه. رجلاها تثبان إلى فم الرحى. قامتها تقصر. رجلاك أيضا تهربان منك. قامتك تقصر. ركبتاها تلحقان برجليها. ركبتاك أيضا. القامتان تقصران أكثر. الأيدي تثب. الأذرع، الأفخاذ. الأوراك. لا يبقى سوى الرأسين. إنهما يتسابقان. الآن فقط أنتما في الرحى. بين فكيها. الرأسان أيضا يتحولان إلى ذرات. الذرات تمتزج ببعضها. صلتها ببعضها تأخذ بعدها. تصير كلية. الريح تنفثها. إنها تنطلق نحو آخر البعد.

الكائن الكلي. كلي فعلا.

عزرائيل يأتي. عزرائيل يضرب بعصاه. هأ هأ. قهقه. إنه يقع في لعبة خدعة الموت. قهقـه. عصاه تضيع في البعد الكلي. قه. قه. ذراعه مليصة في الفراغ. الديدان تطاردها. ها هأ. قه. قـه. عزرائيل ضحية. ضحية. قه قه.

ملأ الغليون. أضرم فيه النار. مزج كمية من الحشيش بالعسل. وضعها على لسانه واستغرق، متذكرا البُلغة[5].

- كنت أعلم يا حمدان أنني لا أجد معك أية صعوبة. إنك مقتنع سلفا. لم يبق لكم ملجـأ يـا حمدان. تردت أوضاعكم وتردت حتى لم يعد هنالك، وضع أسوأ تخشونه. السواد[6] الثري الخصب ضاق بكم. تشتغلون الليل والنهار في الأرض وتبيتون جياعا؟ الماء لم يعد يغذي أطفالكم، تنجبونهم لتسمدوا بهم أرض أسيادكم، إنكم مضرب الأمثال في الفقر [7] وأكثر الأحرار فقرا[8] كان الزنج أكثر حرية منكم.

- وهل نفعل مثلهم يا سيدي الحسين الأهوازي؟

- هل لكم طريق آخر؟

- وما في هؤلاء القوم من قوة، نستطيع أن نفعل بها فعلة الزنج.

- إنهم القوة كل القوة، دع الهيصم وغيره من أرباب الأرض يدفعونهم إليكم. مـرهم بتأديـة خمسين ركعة في اليوم، حتى لا يبقى لهم مجال للشغل في أرضهم. عندما يلتفون حولك، أعطهـم البلاغ الأكبر. قل لهم: (*ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين*) عندما يعرف الأغنياء أهميتهم، لا يعمدون إلى إبادتهم، كلما تمكنوا مـن ذلـك. أخفـوا الرأس يا حمدان. ودعوا الجسد عاريا. إن حصانته لا تقهر.

- وماذا بعد ذلك؟

- كل شيء ظاهر لباطن، إلا العدل، فقرمط[9] بين الناس.

---

[5] -يقال أن حمدان قرمط كان يطعم أنصاره حبيبات عذبة يصنعها بنفسه تسمى البلغة على أساس أنها طعام الجنة.

[6] -سواد الكوفة.

[7] -البغدادي: الفرق بين الفرق.

[8] -الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة.

[9] -تبني لتفسير نعت القرامطة تفسيرا لغويا، فهم كذلك، بسبب سعيهم إلى التقريب بين جميع الناس وليس بسبب قصر قامة حمدان وتقارب خطوه كما هو المفهوم الساذج عند البعض.

- وماذا بعد ذلك؟

- كل شيء باطن لظاهر إلا الجور. فقرمط بينهم في كل شيء. بين الرجل والرجـل. بـين الرجل والمرأة. بين السيد والعبد.

- وماذا بعد ذلك؟

املأوا الدنيا عدلا، كما ملئت جورا. املأوا الدنيا عدلا كما ملئت جورا. أنتم النور والنور أنتم. أنتم الحقيقة الكبرى، والحقيقة الكبرى أنتم. قرمطوا ما وسع الأسياد وفقهاء السوء بين الناس.

اختفى الأهوازي، خرج حمدان، ينظم أمره.

أمرهم بالصلاة خمسين ركعة في اليوم. لما فعلوا ذلك، قال هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . راح الدعاة يبثون في الأرجاء. تفسيره للآية. تقاطرت الدنانير. تهاطلت. تكدست.

أيها الجائع لك أن تأكل.

أكل الجائعون جميعا. إلا أن الأتباع لم يكونوا صادقين.

ماذا نفعل يا بن عمي عبدان. أيها العالم المتفقه. لا يزال هناك من يجوع، ولا يزال هناك مـن يكسب. أهذا هو العدل الذي نعد به؟

- *واعلموا أن ما غنمتم من شيء فله خمسه* المغنم هو المكسب يا حمدان.

انتشر الشعار بسرعة في أرجاء الكوفة وسوادها، ومس كل تابع لهم في العراق والشام. أتـت المغانم. أتت بسخاء لم يتوقعه أحد. القلوب تخفق بحب العدل. من وهب روحه في سبيل العدل، لا يتردد عن دفع خمس مغنمه.

أيها الجائع لك أن تأكل.

أكل الجائع ممتنا. إلا أن الجائعين يتكاثرون. الجيش قوي، مهماباذ[10] تحتاج إلـى تحصـينات وتحسينات، ودولة العدل يجب أن تقوم.

- ماذا يا عبدان ابن عمي وصهري؟

- عبدان قال كل ما عنده.

- وأنت يا زكرويه؟

[10] دار هجرة القرامطة.

- أرى أن تتم القرمطة كاملة.
- ماذا تعني؟
- *واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمتـه إخوانـا* . نقـيم الألفة.
- أنا أعارض ذلك[11].
- دعه يتمم يا عبدان. ماذا تعني بالضبط يا زكرويه؟
- إن عبدان يخشى أن يتنازل عما عنده لفائدة الألفة.
- لن يرضى الناس. ماذا سيكون في مسألة المغنم والخمس إذن؟
- آمرك بالسكوت يا عبدان. دع الدنداني يشرح رأيه.
- تجمع الأموال في موضع واحد، ويكونون فيها أسوة واحدة، ولا يفضل أحد منهم صـاحبه وأخاه في ملك يملكه[12].
- نعم. نعم. هذه هي القرمطة الحقة. هذا ما كان يعنيه الأهوازي.

تدفقت الأموال. أتى الرجال بالأغنام والأبقار ومخزون محصول الأرض، وأتت النسـاء بمـا يملكنه من حلى ومتاع وما لديهن من مغزول، صارت الدولة القرمطية أغنى وأقوى دولة.

- آه يا حمدان، الآلام في بطنك. لعلك سممت. لابد أن ابن عمـي وصـهري، هـو الـذي سممني[13]. آه. عبدان لم يتقرمط بعد. بل، إنه ارتد عن قرمطيته. أموت. أموت. يا من هنـا. آه لا أحد يجيب. أينك يا ابنة عمي؟

مت يا حمدان قرير العين. السادة اختفوا من السواد. الألفة قائمة. لن يرجع عن دعوتك إلـى آخر الدهر. مصير الإنسانية جمعاء القرمطة. لا صلاة ولا زكاة، ولا وعظ ولا إرشاد يؤثر فـي قلوب الجياع. دينهم العدل. لقد فعلنا معهم، ما لم يفعله الأنبياء.

يا زكرويه بن مهرويه. واصل وواصل ثم واصل.

---

[11] -تصور لأسباب الخلاف بين عبدان وبين آل كرزويه، حيث يظهر أن زكرويه كان أكثر تحررا وأكثر استماتة وجذرية.
[12] -النويري: نهاية الأرب.
[13] -تصور شخصي لاختفاء حمدان والغموض الذي أحيط بموته، مع أن كل قادة القرامطة عرف مصيرهم.

أخف الرأس، ولا تخش عن الجسد. جسد الجياع أكبر من أن يقضي عليه الأثريـاء. إذا مـا تمكنت منها[14] فابدأ بعلماء السوء. أجبرهم على العيش من عرق جبينهم، مثلما أفعل وتفعل وفعـل الأهوازي.

أين أنت يا زكرويه. لقد قتلني عبدان. حذار منه فقد انتكس. غره أنه يحسن وضـع الكتـاب. أقمها للعدل، وللعدل وحده، ولا يهمك لمن تنسب. إن قالوا علويـة فعلويـة، وإن قـالوا عباسـية فعباسية. أقمها عادلة، وغض الطرف عن كل الترهات[15].

آه. إنني أموت. أموت.

على الساعة العاشرة من صباح الأحد، استيقظ الحاج كيان. استبدل تبانه وسـرواله المبتلـين. رتب أمور سلته وغادر المقبرة نحو المسجد.

كان الصفاء يملأ قلبه. وكان الشعور بالرضا هو مبعث ذلك الصفاء.

---

[14] -الخلافة.

[15] -إشارة إلى انفصال زكرويه عن الأئمة الإسماعيليين.

الصورتان...

سرعان ما راجت الإشاعة. حياة النفوس ستتزوج. وجدت عريسا أغنى من قارون. استشارت الحاج كيان، قبل أن تستشير حتى نفسها. قال لها الحاج كيان، أسرعي قبل أن يتراجـع الرجـل. خيرها بين السكن في المدينة والريف، فلم تجبه. لم تستطع أن تختار. والحاج كيان قال لها، اسكني الأعوام الأولى في الريف. تعلمي حلب البقر والأغنام، ومخض اللبن واستخراج الزبـدة، وغـزل الصوف وفتل الكسكسي، وانجبي طفلا أو إثنين، ثم عودي إن شئت إلى المدينة.

لا. هذا كذب، الحاج كيان لا يمكن أن يقول مثل هذا الكلام. لا يمكن أن يقول سـوى أنهـا لا تزال صغيرة، وأن حريتها هنا، أكثر، وإن كانت شاطرة استطاعت أن تجمع مالا وفيرا، وجواهر ثمينة ثم تشتري عمارة، وتشتري الزوج الذي تحبه. ما دامت الدنيا تجارة، وصاحب القوة يسـحق الضعيف، فحاولي أن تكوني قوية، قوية بقدر الإمكان، حتى يتسنى لك أن تسحقي بسهولة أكثر. لو كان الحاج كيان، ينصح بالابتعاد من هنا، لابتعد هو بالذات. في إمكان الحاج كيان أن يتزوج مـن يشاء من بنات المحل، ويستقل، لكنه لم يفعل. ولن يفعل.

- وأنت ماذا يقول لك رأسك يا حياة النفوس؟

- رأسي مره، يقول نعم، ومرة يقول لا. مرة يقول بيعي نفسك لهذا المجهول، ومـرة يقـول انتظري حتى تشتري الرجل الذي يروق لك.

- وهذا لا يروق لك، على ما نفهم؟

- أنا لا يروق لي أحد. كلهم حمير يؤدون نفس الدور.

- وخاتم الهزية؟

- الهزي هزي. والرجل رجل.

ارتفعت القهقهات. امتلأ المحل بها لحظة، ثم عاد إلى الخواء. دق الجرس. انفتح الباب. دخلت العنابية، تتأبط ذراع خاتم الهزية. على عينيها نظارة سوداء، وعلى شعرها منديل وردي. ترتـدي جاكيتة دان وسروالا أحمر، وحذاء بلونه.

- ألم يظهر حمود الجيدوكا بعد؟
- بلى. إنه هنا.
- ليحمل إلى جناحي بيرة وأنيزات. أنت يا بنت، يا حياة النفوس التحقي بي.

كان حمود منذ عاد صباح السبت، حزينا مهموما. حاولت علجية أن تواسـيه إلا أنـه منعهـا بجفاء. لقد قرر فجأة أن يغير حياته. أن يخرج من هنا، وفي نفس الوقت مع حياة النفوس. هل يهم فارق العمر بينهما، ثلاثون سنة؟ يهم أولا يهم. إلى أين سيأويان؟ ربنا ورحمته. ماذا سيشتغل، من أين سيقتاتان؟ هل لكل هذا أهمية؟ الأهمية الوحيدة لحياة النفوس، وللخروج بها من هنا.

بالأمس كان خاتم الهزية هو العائق. تنحى خاتم الهزية فجأة، ولربما أيضا، مؤقتا، لكن ها هي الدراهم تقوم اليوم عائقا. أستشير الحاج كيان حالما يأتي. لقد تأخر اليوم، على غير عادتـه. لكـن قبل ذلك لم لا أتحدث مع حياة النفوس وأدرس معها الوضع، حياة النفوس إما أن تفعل ما أطلبه أو أقتلها. من اليوم فصاعدا، أنا هزيها. بُلْ على الخِرب قبل أن تصبح معابد .

- ما معنى الكلام الذي يدور هنا يا حياة؟

تساءلت المعلمة، متظاهرة بالتودد، وهي تحاول أن تقف بينها وبين خاتم الهزية. دققـت فـي الوضع، شعرت بتفاهة خاتم الهزية. البارحة عرّض نفسه للخطر من أجل الظفر بي. واليوم يبيـع نفسه للمعلمة. باباي كان شريفا. عزيز النفس، حاولت مرة أن أعطيه بعض النقود فصفعني. أنـا أعشقك أنت وليس نقودك. قال.. لو كنت مكانها، لاشتريت رجلا محترما.

- إنك لم تجيبي المعلمة يا بنت.

رمقته بنظرة احتقار، ثم رفعت كتفيها، وقبل أن تلفظ بأية كلمة، نهض من السـرير، أمسـك بكتفها، وهوى عليها بصفعة.

- عندما تتحدث إليك المعلمة، أجيبيها بسرعة. هل تفهمين.

تراجعت عن تقبيل يده. شعرت بكره شديد يصدها. هربت متقية صفعة ثانية. جمدت العنابيـة في مكانها. كانت جد مسرورة. فكرت حياة النفوس فيما ينبغي أن تفعله قبل أن تنتهي إلى قرار:

- بأي حق تضربني. يا لئيم، يا لص. سأقول للحاج كيان حالما يعود. أنا لن أبقى يوما آخـر في هذا المحل.

- خفضي صوتك يا بنت.

- تعالي هنا. إنك في حاجة إلى عقاب أقوى.

- لا. لا. دعني.

ارتفع صراخها حتى ملأ المحل. جاءت النساء مسرعات.

اهتز قلب حمود الجيدوكا. بحث حوله، قابله خنجر كبير، حمله، وركض.

- حمود. حمود ماذا تفعل؟

صرخت علجية، وارتمت عليه، حاول أن يتخلص منها، ارتمت الوهرانية بدورها، ارتمت ثالثة ورابعة وخامسة، وجد نفسه يتراجع. وجد يده مضطرة للتسليم في الخنجر.

- هذه المرأة لم يبق العمل معها ممكنا. إنها تحرض الهزية على ضربنا. صفعني أمامها بلا مبرر ولم تحرك ساكنا. هي التي حرضته. العجوز الشمطاء، تشتري الهزية لضرب صانعاتها أنا أخرج اليوم بالذات. سأتزوج القروي الليلة.

- لن أبقى أنا أيضا.

قالت الوهرانية، فأضافت علجية:

- وأنا بدوري.

- وأنا، وأنا.

تواصلت الاستقالات. ارتمت العنابية على حياة النفوس، احتضنتها، قبلتها، دفعتها إلى الداخل، وأغلقت الباب بعد أن أمرت خاتم الهزية بالخروج. أجلستها على السرير. وضعت رأسـها علـى ركبتيها، وراحت تمسح عليها، بينما هي غارقة في بكاء مر.

قبل اليوم، كانت تستعذب الضرب. كانت تجد فيه لذة غريبة، لا تجدها وهي بين أحضـان أي رجل. تستفز باباي البوكسور أو خاتم الهزية بعده، حتى تنال صفعة أو أكثر. لكـن اليـوم، وقـد

جاءتها صفعة مجانية، شعرت بإهانة شديدة، وباحتقار كبير. تذكرت أباها الذي سافر إلى فرنسا ولم يعد، وأخاها المشلول الرجلين الذي يعيل أمها وزوجها. تذكرت الليلة التي طلبتها أمها، وأمرتها بالنوم في فراشها.

- لماذا؟
- قدر الله يا ابنتي.
- ما معنى هذا؟
- إما أن تفعلي، وإما أن يهجرنا.
- هذا كلام كبير يا أمي. ليهجرنا ولتلحقه اللعنة. سيموت جوعا إن هجرنا.
- لا يا ابنتي، لا أطيق. لا أريد أن يهجرني رجل ثان بعد أن هجرني أبوك.
- يا أمي فكري فيما تقولين؟
- لقد فكرت جيدا يا ابنتي، نامي واللهُ ولي كل الأمور. هيا هيا، أدخلي إلى الفراش قبل أن يأتي.

أغوتني.

دخلت الفراش. كانت تبكي، كنت أرتجف. انفتح الباب الخارجي للكوخ، داعبت أمي ثديي، وغادرتني. أطفأت القنديل.

جاء راكضا. انتزع ثيابه. سعل. امتدت يداه إلى خصري. كانتا باردتين. شعرت بالرعب. صرخت من أعماقي، وقفزت.

حاول أن يركض خلفي في الظلمة. دفعته في صدره. تراجع ثم تقدم، رفعت رجلي، وركلته بين فخذيه، صرخ وسقط، جاءت أمي تجري.

غادرتهم.

طفت هنا وهناك. ألقي القبض علي مرة، أولى، فثانية، فثالثة. بعدها اضطرتني الشرطة، إلى الامتهان أو إلى الذهاب إلى السجن. قضيت شهرين، بالجلفة، ثم جئت. أتى بي بابا اي البوكسور مسكين. وراح يحبني. تراه أين يكون؟

- اسمعي يا بنتي. الكلام الذي تقولينه خطير. أنا أحبك أكثر من جميـع الصـانعات اللائـي اشتغلن ويشتغلن معي. لا أحبك لأنك أجملهن. صحيح أنك تحبين أكثر لأنك جميلة أكثر، لكن أحبك كابنتي. أحبك كنفسي. اسألي الحاج كيان، وسيقول لك، سيقول لك إنك نسخة طبق الأصل منـي، عندما كنت في مثل سنك.

- قال لي ذلك.

قالت شاهقة، والغصة تمزق الحروف في حلقها، شعرت بقلبها يلين. شعرت العنابية أيضـا أن قلبها يلين أكثر فأكثر، تذكرت يوم حاولت أن تخنق نفسها بحبل صـنعته مـن قميصـها، عنـدما انتزعوا عشيقها منها، ليرسلوا به إلى كيان. لو لم ينقطع الحبل لمت. آلمني كثيـرا يومهـا، أن لا أموت.

أجلستها قبالتها. راحت تتأملها. امتدت يداها إلى عنقها، انتزعت عقدا ثمينا أهداه لها في تونس قاضي القضاة، وضعته في عنق حياة النفوس. قبّلتها. استخرجت من حقيبة يدها، مشطا، راحـت تسرح لها شعرها.

- أنا لم أنتزعه منك. كل ما هنالك أنه ارتمى في أحضاني، فاحتضنته. أنا يا ابنتي اجتـزت الأربعين، في سن أمك، أو أكبر. هذه فرصتي الأخيرة. لا أستطيع أن أتردد في احتضانه أبدا. هل تتصورين أنه يلهس ثديي مائة مرة في اليوم. هل كان يفعل ذلك معك أنت؟

أشارت حياة النفوس برأسها أن لا.

- أرأيت أن ارتماءه في أحضاني له معنى خاص. إنني عمياء يا بنتي. سأعطيه كل نقـودي، كل ما أملك، سأزوجه بك إن طلب. سأتنازل له عن المحل إن شاء. إنني عمياء. أعلم أنني أسـير نحو الهاوية، ولكنني مع ذلك لا أريد أن أفتح عيني، لأتجنبها. الهزي لا يُحب من أمثالك يا ابنتي، لأنه شخص مجنون، ينحدر إلى الهاوية. إن فتى، مثل هذا لا يحب إلا من عجوز، تـودع الحيـاة مثلي. إلا من جرة ملأى بالقطران، تنحدر من قمة جبل، ومعرضة مثلي، في كل لحظة للارتطـام بصخرة. هيا قبليني، يا عروسة. احتضنيني جيدا.

احتضنتها حياة النفوس. قبلتها في عنقها، في خدها، ثم في فمها. كانت مشاعر المودة، تسيطر على قلبها.

- سامحيني يا بنتي. سامحينا. إنه أهوج.
- سماح الدنيا والآخرة.

هذا العقد هدية مني إليك. احتفظي به مهما كانت الظروف. هيا يا عروسة عودي إلى حجرتك، لو كان لي ولد، لما ترددت أبدا في اختطافك عروسا له. كم يسرني أن أكون حماتك، أو أمك.

- سامحيني يا لالّة.

قالت البنت، وخرجت إلى البهو. يملأ الرضى قلبها.

المعارضة الحمقاء

كانت الساعة العاشرة والنصف عندما دخل الحاج كيان، ليفاجأ بالمنظر.

خاتم الهزية ملقى على الأرض، موثق اليدين والرجلين بمناديل، والبنات ينهلن عليه ضربا.

بدأت المعركة، عندما غادر جناح العنابية، وفوجئ بحمود الجيـدوكا، يتخـبط بـين أيـديهن صارخا:

- أعود إلى الأشغال الشاقة من أجله. اللص الكاب، يتهزز على الولايا. أشرب دمه، وآكـل كبده، لن يسلم مني اليوم. يا أنا، يا هو. إذا كان احتقر باباي البوكسور، فلن يحتقرني أنا.

- إنه يعنيني على ما يظهر. هذا الهرم يستهدفني هذه مدة. دعنه، يجرب حظه، لآخر مرة في حياته، قبل أن يرضى بموقعه.

أسرعت علجية، إلى غرفتها. أخذت الخنجر تحت الفراش وعادت مسرعة.

- الآن أطلقنه. لنر ما هو قادر عليه.

قالت، ثم راحت تفك الحصار عنه. خلصته، وخلت بينه وبين خاتم الهزية، وفتحت ذراعيهـا، كأنما تدعوهما إلى المبارزة.

- اسمع يا العجل. هات خنجرك أيضا.

- وما حاجتي إلى الخنجر، عندما يكون الأمر متعلقا ببقرة هرمة مثل هذه.

- تقول بقرة.

- أقولها وأعيدها. تعال هنا.

قذف حمود الجيدوكا سترته بعيدا، وتوثب للانقضاض على خصمه. كان يتـربص أن يـتمكن منه، بضربة من ضربات المصارعة اليابانية، فيطرحه أرضا، ثم يفعل به ما يشـاء. راح يبـذل قصارى جهده للاحتفاظ ببرودة أعصابه.

فطن خاتم الهزية إلى خطته. فأراد أن يتحداه. أعطيه فرصة القائي. عندما لا يتمكن، أسـخر منه وأستفزه، فيركب رأسه. سأخصيه خصيا اليوم.

اختطف حمود ذراعه، تذكر شبابه، أيام كان يتحزم بحزام أصفر، ويسافر من عاصمة لأخرى، إلى أن تعرف عليها في ألمانيا. عشقها. وقع صريع حبها. طلب منها أن تغادر الماخور وتتبعـه. قالت له إنها هكذا أكثر حرية. من كلمة لأخرى. استفزته. امتدت يده إليها. هوت على الدرجة، فج رأسها. حملوها إلى المستشفى. لم تعد: كلفته عشرين سنة أشغالا شاقة.

سحب. قهقه خاتم الهزية.

شعر بالغيظ. وقفت حياة النفوس في خياله عملاقة. رفعه إلى فوق. انحنى. تجاوبـت الأرض مع جثته.

- إليه يا حمود.
- هتكه يا حمود.
- إياك أن تقتله يا حمود.
- آه يا أخي، صدق المثل: القدر القديمة وحدها في بنة طعامها. عود الجيل الجديد، لا يصمد للعواصف.
- إيه. رجال الزمن الماضي، طينهم وحدها.

حمود الجيدوكا، لولا امتلاء قلبه بالحياة وهمومها، لكان هزي الهزية، في هـذا البلـد. لكـن، النفس الشبعانة شبعانة.

تمكن خاتم الهزية من التناهض بأسرع مما كان حمود يتوقع. صرخ كالأسد الجريح. هجم عليه وكاله ضربة عنيفة، انحنى حمود الجيدوكا. مرت الضربة فوق رأسه. شعر بالخطر الماحق. تمنى لو أن علجية لم تنزع منه خنجره. فكر في الهروب. فكر في التراجع. بانت له حياة النفوس. بـان له شبابه. تراءى له شاب أسمر، في بدلة بيضاء رجراجة، وبحـزام أصـفر. كـان الأمريكيـون والفرنسيون والإنكليز ينحنون لك. كنت تصمد أمام اليابانيين، ولا تنحني بالسهولة. جولة أخـرى ويسقط العجل.

حاول التقهقر. تشجع خاتم الهزية. أسرع إليه. انحنى. تمكن من ذراعه. قذف به إلى الأمـام. التفت ليرى أثر الوقعة. كان خاتم الهزية واقفا والبسمة الساخرة على محياه. عيناه تنظـران إلـى الجدران الأربعة، ويداه ممدوتان تريدان الانقضاض.

- علجية الخائنة لو لم تنتزع مني الخنجر لقضيت عليه. كيان، ولا الانهزام أمام هذا العجل.

التصميم في القلب لا يزال قويا. حياة النفوس لا تزال ماثلة أمام عينيه.

- لابد أن ينتصر أحدنا. إذا ما قضيت عليه، عدت إلى التهزز.

حاول أن يوجه ضربة قوية إلى عنق خصمه. لكنه تمكن من صدها. أبعد عنقه، ووجه لكمـة إلى ذراعه. آلمته عضلته، واعتراها الارتخاء.

- لا تزال اليسرى قوية. إذا ما انحنى، أو اتخذ وضعا جانبيا، حضر أجله. الضربة الممنوعة في المصارعة اليابانية. أوجهها له. ها هو يتقدم. ليتقدم أكثر. لأهرب إلى اليمـين. حينمـا يميـل أهوي عليه.

- هيا يا حمود إنك حتى الآن منتصر.
- انتقم لحياة النفوس يا حمود.
- وللبوكسور أيضا.
- إياك أن تنهزم. ستكون عبدا له إن انهزمت.
- سيقتلك.
- من يغلب؟
- حمود.
- لا. خاتم الهزية.
- هل تراهنين؟
- أراهن.
- بكم؟
- بما تشائين.
- عشرون وصل اتصال بعشرين.

- أقبل.
- أقبل.
- هيا يا حمود.
- هيا يا خاتم الهزية.

تمكن خاتم الهزية من توجيه لكمة أخرى إلى اليد اليسرى. اعترى حمود الجيدوكا الوهن في ذراعيه. شعر بدقات قلبه تتضاعف. تمنى لو أنه احتسى كأس نبيذ أحمر. لو أنه ملقى في السرير؟ لو أن علجية المسكينة التي تحبه، تضمه إلى صدرها. لو أنه لا يزال في السجن، متخلصا من كل مسؤولية. لو أنه لم يعرف الألمانية، ولم يعشقها، ولم يصفعها ولم يقتلها.

تراءت له حياة النفوس. تاق إلى التحرر من وضعه في الماخور. هات بيرة. هات أنيزات. هات واحدة. هات ستة. قرر أن يصمد.

هذا العجل لا يجوز التراجع أمامه.

مد خاتم الهزية يديه. تمكن من القبض على يدي حمود الجيدوكا.

كان يعلم أن قوته تكمن هناك، فعمل أساسا على إضعافهما وشلهما.

انحنى الاثنان يتقيان ركلات بعضهما. التقت رأساهما. فكر خاتم الهزية أنه في إمكانه، أن يوجه ضربة رأس قوية إلى خصمه فيلقيه أرضا، ثم قرر أن لا يفعل. لم يحن أوان ذلك بعد. البقرة الهرمة لا تخيف، فلتتعذب قبل أن تخر.

تساءل حمود الجيدوكا عما إذا كانت يداه ستظلان مشلولتين وقتا أطول، وعما إذا كان رأسه، سيتحمل صدمة قوية من رأس هذا العجل.

ما كان كان. وما سيكون يكون.

- خاتم الهزية يغلب. قلت لك.
- لا. حمود. حمود الجيدوكا لا يقهر.
- الرهان لا يزال ساريا.
- لا يزال. عشرون بعشرين. لا تراجع.
- لا تراجع.

اضطر حمود الجيدوكا إلى السماح لرجليه بتلمس خطوتين إلى الخلف، وإلى جسده بالتقهقر، مع تصميمه القوي، على أن يظل ثابتا برأسه، حتى، يشعر العجل بالوهن وينحني.

- أيتها البقرة الهرمة. ماذا سأفعل بك الآن. تعلم أنك في قبضتي. ستتراجع وتتراجع حتى لا يبقى لك مجال للتراجع. في وسعي أن أوجه لكمتين قويتين أخريين إلى عضلات ذراعيك فتيـأس من كل حركة. تعرف أنك انتهيت. هرمت وحان أوان إستسلامك، ومع ذلك لا تريد أن تسلم. إنك معاند غبي. لم تعلمك عشرون سنة من الأشغال الشاقة أي درس. سأبطحك. انزع سروالك. ابصق على مؤخرتك، وارسم في اليتيك بظفري أو بنابي، خطوطا متعامدة. لقـد حـان أوان انبطاحـك، وسترى ما ينتظرك. أعلن استسلامك أعف عنك.

فطنت علجية إلى أن وضع حمود الجيدوكا يتردى شيئا فشيئا وبسرعة كبيرة. عـز عليهـا أن تراه في منظر باباي البوكسور. ومع أن كفاحه ليس من أجلها، بل، من أجل نزوة طائشة، سـكنت رأسه فجأة، فإن من واجبها أن تنقذه. إنها ملأى بحبه، وإنها تعلم أنها آخر ملجأ ومأوى له. لتنقـذ كرامته، قبل أن يمرغه العجل.

أشارت إلى الوهرانية، وإلى باقي النساء. ارتمت على رجليه. انبطحت أرضا، وتمسكت بكلتا رجليه، توقف زحفه. امتدت أيد كثيرة تعينها. سقط خاتم الهزية أرضا، وقف حمود الجيدوكا يلهث. أسرعن إلى شد وثاقه بالمناديل.

- ماذا تفعلن يا بنات؟

قال الحاج كيان وهو داخل ثم أشار إلى الوهرانية وحياة النفوس بفك وثاق الرجـل. وأعطـى أمرا بأصبعه إلى التفرق.

عادت النساء إلى المناضد. عاد حمود الجيدوكا إلى المشرب يتفصد عرقا. نهض خاتم الهزية ضاحكا.

الــودر

ما أن جلس الحاج كيان وسط البهو، حتى تحلقت حوله النساء، يحيينه بمختلف التحايا. كانـت الوهرانية، أول من جلس إلى جانبه، ثم قابلتها حياة النفوس، على الجانب الآخر. محمرة العينـين، تنتزع البسمات من فمها انتزاعا، في حين جلست علجية خلفه مسندة كرسيها إلى كرسيه.

- كيف حالكن يا بناتي؟ أنتن جميعا هنا؟
- جميعا يا بابا الحاج.

قالت علجية، وهي تتابع حمود الجيدوكا. بدا لها أن جسمه الذي تقوس إثر المعركة التي أنقذته منها، قد استقام، وأن وجهه الذي كان الذبول قد اعتراه، استعاد حيويته. لقد لمعت فكرة جهنمية في رأسه ولاشك. هذا الشعور بالرضى الذي يعتريه فجأة دليل على ذلك. مسكين حمود الجيدوكا، إلى أين يذهب إذا ما وجد نفسه خارج المحل مطرودا؟ لا يتصدى لخاتم الهزية فحسب، وإنما يجـرح عاطفة المعلمة. لقد وقفت بنفسها في وجهه وصرعته بالعصا دفاعا عن عشيقها، ولم يفهم.

سيقتلونك يا حمودي العزيز، أو يطردونك. وسأبقى وحيدة.

- أنا الوحدانية. أنا قليلة الوالي.

رفعت علجية عقيرتها. ضحكت النساء. تبسم الحاج كيان. وقف خاتم الهزية والعنابيـة علـى رؤوسهم، كانت العنابية تتأبط ذراع عشيقها في لهفة، في حين علا العبـوس ملامحهـا. فهمـت النساء، أنها ستنفجر، للفعلة التي أتينها. راح خاتم الهزية يبتسم، وهو يتأمل وضع الحاج كيان: *هذا الرجل سلطان. هارون الرشيد، دقيانوس،* علق خاتم الهزية، ثم استرق نظرة خاطفة إلـى حمـود الجيدوكا.

- من هي صاحبة الأمر اليوم يا الحاج؟
- المرة السابقة سأل عن العنابية وعن حياة النفوس.

قالت علجية ترد على سؤال إحداهن. همس خاتم الهزية في أذن المعلمة يسأل عن سر العملية، أفهمته أن هذه عادة قديمة عند الحاج كيان. يحضر معه كل يوم اثنين بعد تغيب السبت والأحد إلى حيث لا يدري أحد، رزمة حلوى، يختار واحدة من البنات، يعلن أنها صاحبة الأمر. يعطيها إياهـا لتوزعها، وتقوم بشؤونه يومها وليلتها. تغذيه وتعشيه، وتبيته في غرفتها. إنهن جميعا يتمنين، كـل من جانبها، أن يقع عليها الاختيار، لتصبح تتبجح في الغد، بأن الحاج كيان، أبـاح لهـا بـبعض أسراره، وأنها ستحتفظ لنفسها بهذه الأسرار.

- تراه من سيختار اليوم؟

تساءل خاتم الهزية بصوت عال، التفتت إليه النساء متفاجئات.

أيهمه حقا، أن يدخل جوهن، وينسجم معه، أم هو مجرد تظاهر؟ هذا هزي من نوع خاص !

- الحاج كيان يختار حسب مزاجه.

قالت العنابية، وهي تخشى أن يقع اختيار الحاج كيان عليها. هل تقبل أن تكرس يومها لـه، أم تخرق العادة فترفض.

لا. الحاج كيان طيب، ولن يفعلها. لن يحاول أن يبعدني عنه أبدا، إذا ما فعل ذلك، فـإن هـذا موقف منه. عدائي لا محالة. ثم ما سيكون موقف ختومه حبيبي.

- هيا نخرج.

قالت هامسة، فلم يأبه لها. كان بصره عالقا بالحاج كيان، وهو يجيل نظره في النساء، كأنمـا يتعرف عليهن للمرة الأولى.

اضطربت العنابية، عندما التقت أعينهما. ابتسم الحاج كيان. دق قلب العنابية، تمنت لو طاوعها الولد وخرجا.

إذا ما وقع عليّ اختياره، أكون اليوم أسعد واحدة، أضع رأسي في صدره، وأبكي حتى أموت. فكرت حياة النفوس، وفكرت الوهرانية أن من واجبه أن يختارها. الجميع هنا يعلم أنني متعلقة به، وأنه بدروه يحبني، يعطف علي أكثر من الجميع على الأقل. إذا لم يخترني غضبت عليه إلى الأبد.

- أحبابنا يا عيني رحنا وراحوا عنا. ولاحد منا انتهنا. عيني يا عيني .

- هيا يا الحاج كيان اختر. لقد أطلت التردد.

- هاك الرزمة يا خاتم الهزية، وزع الحلوى على البنات.
- ما هذا؟
- الحاج كيان يتوج خاتم الهزية.
- إنه يضع ثقته فيه.

تردد خاتم الهزية ثم مد يده وتناول رزمة الحلوى. اهتزت أعطاف العنابية. وثبت إليه وقبلته.

- شهم. شهم. حاج كيان ونصف. ولد جامع الزيتونة ونصف. أنت أبونا كلنا. يا بوحجة.

راح خاتم الهزية يوزع الحلوى بحماسة. نسيت النساء بسرعة حقدهن، ورحن يتناولن من يده ويستزدن. حتى حياة النفوس، طلبت أكثر من مرة الاستزادة. تناولت العنابية حبة ووضعتها في فم خاتم الهزية. نهض الحاج كيان وأشار إلى الوهرانية:

- هيا يا وهرانية.

وثبت. هتفت العنابية:

- هاك قسمتك يا باي تونس. وأنت يا حمود الجيدوكا. افتح قارورة أنيـزات وصـب إلـى البنات.

زغردت. تردد صدى الزغرودة في أرجاء المحل. رفعت علجية صوتها:

طهر يا المطهر صحة لا يديك. لا تجرح وليدي لا نغضب عليك.

زغردت الوهرانية، زغردت حياة النفوس. رن جرس الباب. هتفت العنابية:

- لا تفتح يا باي تونس. لا تفتح وربنا ورحمته، قطنا وشحمته.

قهقهت.. قهقه الجميع. نهضت علجية. تناولت أيدي الوهرانية وحياة النفوس، وراحت تضرب الأرض بإحدى رجليها، وتزأر.

- *أرواح أرواح وكي نشوفك نرتاح ويتغير حالي .*

تبعتها المرأتان. تأبطت كلتاهما أحد ذراعيها، ونسقت حركة ركبتها معهما، وراحت تضـرب الأرض وتزأر من أعماقها.

راحت العنابية بدورها تستحث باقي النساء، ساحبة إياهن من أذرعهن. شرعت العدوى تسري بسرعة. تقابل الصفان. صف علجية والوهرانية وحياة النفوس، وصف العنابية، وبـاقي النسـاء.

راحت الأرض تهتز تحت ضربات الأرجل القوية. راحت الغرف والطوابق، والجدران تستوعب الحياة وتتجاوب معها.

اختطف خاتم الهزية ذراع الحاج كيان. ضرب الرجلان بأرجلهما.

حاولت النساء تطويقهما وضمهما إلى أحد الصفين، ظلا يحتفظان بكيانهما.

كانت يد خاتم الهزية تشد بقوة على ذراع الحاج كيان. شعر بذلك. قال لنفسه إنه كان يقدر هذا، وإن الوقوف ضد التيار جنون. حمدان قرمط، لم يفعل، سوى أن حرر التيار الذي كان محبوسا، وانساق معه.

أسرع باي تونس واتخذ مكانه في صف الرجال، اختار أن يتناول ذراع الحاج كيان بدل ذراع خاتم الهزية.

تردد حمود الجيدوكا كثيرا، حاول أن يرتب القوارير.

حاول أن يرتب الكؤوس. حاول أن ينشغل بأمر ما. قابلته حياة النفوس بطلعتها البهية، كانت مثل البرق الوامض، الذي ما أن تتوق العين للتحديق فيه حتى يختفي. كانت مثل الشمس ما أن يحدق فيها عاشق، حتى ينبهر.

تردد وتردد، ثم انساق، زأر من خلف المشرب بعد أن ضرب رجله بقوة على الأرض. وجاء يتقدم راقصا نحو الصفوف الثلاثة. اعترض سبيله أولا، صف علجية.

قرر أن حياة النفوس، ليست من جنس بني آدم، وإنما هي ملاك، خُلق في السماء السابعة، ونزل إلى الأرض ليضفي البهجة على النفوس.

عندما استدار الصف، كانت العنابية ومن معها، يحلن بينه وبين صف الرجال. أغمض عينيه وقرر أن يكون صفا رابعا. رفع صوته أقصى ما يمكن حتى يجد له مكانا في الفضاء المليء. أسلم ذراعه ليد قوية، تتشبث به. دخل في النسق العام.

- أرواح أرواح.
- وكي نشوفك نرتاح.
- ويتغير حالي آه.

من يطلب الحاج كيان؟ من تطلب العنابية؟ من تطلب علجية؟ من يطلب خاتم الهزية؟ والوهرانية؟ وحياة النفوس؟

هل يطلب كل عاشق وعاشقة، المعشوق؟ هل يكفي ذلك؟ إن العاشق والمعشوق متقابلان. إنهما هنا، لكن القلوب خاوية والصدور تهتف طالبة الراحة.

كان الحاج كيان، يلمح بين عينيه، تارة أبا الطيب المتنبي، وتارة حمدان قرمط، وتارة زكرويه الدنداني، وكانت العنابية، ترى غيمة تمطر أطفالا ظامئين، وكانت حياة النفوس، ترى صدرا في طول الأرض وعرضها، أما الوهرانية، فليس بين عينيها المغمضتين سوى بسمة الحاج كيان الوقورة. وكانت علجية، ترى نبع ماء بين نخلتين منفردتين في صحراء لا أول ولا آخر لها. حمود الجيدوكا، كان يرى حزاما أصفر، يتلوى في الأفق. باي تونس وأحوازها، يرى عنزة في مراح، أمام خيمة شعر، وسط مرج أخضر.

الوحيد الذي لم يكن يرى شيئا، ولم يكن يهتف أو يتوق لشيء، هو خاتم الهزية. كانت غشاوة حمراء، تحجب عن بصره كل المرئيات. حين يتقدم يشعر بنفسه يتقدم، ويعتز بالفوران، الذي يدفعه إلى الأمام، وحين يتراجع، يشعر بالنشوة، ويخيل إليه أن ذلك اهتزاز وأنه أولا وآخرا دليل على أنه حي يتصرف في كل حركة من حركاته.

- أرواح أرواح.
- وكي نشوفك نرتاح.
- ويتغير حالي آه.

لم يأت شيء. لم يأت أحد. الأبواب الستة منغلقة. الصوت بلغ عنان السماء، ولكن لاشيء أتى. مع ذلك شعر الجميع، آخر الأمر، أن شيئا لا مرئيا، في قوة الشمس، أتى، اقتحم أعماقه واستقر. ملأ قلبه بالرضى والاطمئنان والرقة، واستقر.

خفتت الأصوات. سحب الحاج كيان الوهرانية من يدها وصعد بها إلى غرفتها. ترددت حياة النفوس، احتارت أين تذهب، ثم لحقتهما. حمل خاتم الهزية بين ذراعيه العنابية، وراح يعد لسانه للهس ثديها.

عرس بغل، عرس بغل مهما كانت الأمور

رن جرس الباب. فتح باي تونس. امتدت له يد بورقة زرقاء وطلبت منه أن يوقع في كراس. راح يركض إلى العنابية. فتحت الورقة الملفوفة، حاولت أن تتعرف على ما فيها، لم تتبين سوى حروف متراقصة.

- هذا تلغراف. هاك إقرأه يا خاتم الهزية.
- نسيت نظاراتي في المكتب. أعذريني لا أستطيع قراءته.
- لعله من الضرائب.
- وهل من العادة أن توجه الضرائب تلغرافات؟
- من يدري. الوقت يجري بسرعة، والقوانين تتغير بسرعة أكثر. إنني أطمع أن أصفي حسابي معها بعد العرس إن شاء الله.
- لقد قلت لي ذلك، وأنا موافق.
- يكون متعلقا بالعرس حينئذ.
- ما في ذلك شك.
- يا حاج كيان. يا الحاج. هو فقط، أو علجية، يتمكن من فك رموزه، يا حاج كيان.
- قلت لك أن بإمكان النساء، أن يتبرعن بربع سبت واحد.
- لم أفاتحهن في الموضوع بعد.
- ليس ذلك من مهامك.
- ومن مهام من إذن؟
- الحاج. الحاج كيان. لقد بدأت أفهم هذا الرجل. إنه يبسط جناحه عليك بالفعل.
- ماذا يعني كلامك هذا يا ختومة؟
- أعني أن الرجل لم يحج إلى كيان في سبيل الله.

- لقد فعل ذلك من أجلي.
- إنه يحبك فعلا.
- وكيف عرفت ذلك.
- حين وقع اختياره علي، إنما كان يعني أنه اختارك أنت.
- هذا وهْمٌ لا غير. الحاج كيان، أراد أن يصلح ما تصدع، وأن يجبر الكسر. لقد وجد الجـو متوترا بسببك، فأراد أن يبعث فيه الصفاء. إنني أكثر معرفة به منك أنت يا ختومة.

رن الجرس. امتدت يد بورقة زرقاء أخرى. وقع باي تونس. رن الجرس مرة أخرى. انفـتح الباب. انغلق. رن الجرس، وقع باي تونس. ركض. عاد. رن الجرس. ركـض عـاد. تكدسـت الأوراق الزرقاء.

- الجلفة والأغواط، وسطيف وعنابة. ميلة ومليانة، وبسكرة والبليـدة، قسـنطينة وتلمسـان. وهران والأصنام، كلها تلبي الدعوة إلى الحضور لعرس بغل. الجلفـة تقـول إن معهـا أحسـن الراقصات في القطر. عين البيضاء تقول إن معها أشهر فرقة لغناء الصراوي[16] قسنطينة تؤكد أن في صحبتها سبعة قياد وأربعة هزيين.
- زد. زد. اقرأ وأعد القراءة. قلبي يرتاح أكثر. ما خاب من كانت أموره بين يديك يا الحاج كيان.
- وهل كل شيء معد؟
- ماذا تريد. الطلبات للبضاعة قدمت. غدا يبدأ التوزيع. قررت أن أطعم أيضا. لا يليـق أن ترجع المعلمات والقياد والهزيون، دون أن يقدم للجميع الطعام. يجب أن يفهموا، أن العـرس، وإن كان عرس بغل، ليس وراءه إفلاس واحتياج كبير إلى النقود. سيكون العرس من أجل ختومة، ومن أجلي يا حاج كيان. وستسهر أنت وختومة، والأحمق حمود الجيدوكا على الأمن. ستسقون الهزيين الذين يأتون، وتذكرونهم بالمُثل والقيم. وتطلبون وضع حد لنزق من يركب رأسه. سـترقص كـل جميلة. وستخرج الآلاف للرشق[17] وسيعلان المغني، إثر كل كلمة *بات يا خويا بات*[18] ويرفع ورقة

---

[16] -يقصد به اللحن العالي ولعله منسوب إلى الارتفاع.
[17] -وضع ورقة نقدية في حزام أو في فم الراقصة، هدية لها وإعجابا بها.
[18] -أمر التوقف للقصب، والإيذان بأن هناك من يعلن عن وجوده بالنقود.

العشرة آلاف إلى فوق معلنا أنها ميتة، من عند فلان وعلى رأس فلانة وفلانة. والبلد الفلاني. فـي عرس البغل، وعندما تسلم الأمور، تتوفر الأموال وتحل جميع مشاكل المعلمة.

- اليوم الإثنين. وفي مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم يكون العرس.

قال الحاج كيان، فأضافت العنابية:

- قل إنه يبتدئ يوم السبت إن لم يكن الجمعة.

- يوم السبت لا أكون هنا.

- مشكل كبير مع سبتك وأحدك هذا. في تونس يقولون، *يوم احتجتك يا وجهي خبشتك القطط*.

- سأرتب الأمور، حتى تجري وكما لو أنني حاضر. إذا ما حدث ما لم يكن في الحسبان، فلا لوم على أحد. لا علي، ولا عليك، ولا على خاتم الهزية أيضا.

- إنك رجل ونصف يا حاج.

قال خاتم الهزية. تأمله الحاج كيان مليا، وأجابه:

- إنني أحاول أن أساعدها بقدر الإمكان. وهذا كل ما في الأمر.

أشار بيده إلى العنابية. ابتسمت هذه. رفعت رأسها متبجحة، وكأنما تريد أن تقول له: أيها الولد المسكين. الدرة المنفردة، وإن كان يعشقها الجميع، فإنها من اكتشاف واحد لا غير.

- إن كنت تفكر في الاستمرار هزيا هاهنا، فجند أيام العرس، أقصى ما يمكن من الأتباع.

- ماذا تعني بذلك؟

- أعني أن عرس بغل، عرس بغل، مهما كانت الأمور، ومن أول لحظة إلى آخرها.

- أنا حديث عهد بالتهزز يا حاج.

- أعلم ذلك.

- ستتجمع أموال كبيرة هنا، وذلك لا يخفى، على بال الكثيرين. وهناك مـن يتصـيد هـذه المناسبات، بلهفة.

- ما هي نصائحك؟

- دعوا كل ذي قوة يتأكد من قوته. لا تردوا من تمتد يده إلى قلمونة[19] المغني، أو حـزام الراقصة، أن يأخذ ما طاب له من النقود. لا تستفزوا أحدا، ولا تشعروا قويا بأنكم أقوى منه.

- لقد عشت كل ما تقوله، يا الحاج. إنك دهقان بحق. افهم جيدا يا ختومة، ما يقولـه الحـاج كيان، إنه أكثر تجربة مني ومنك. قرأ في جامع الزيتونة، وعاش بأكبر ماخور في تونس، وخـالط كبار المجربين بكيان. إنه أعظم هزي بالحكمة يا ختومة. استفد منه، وأضف إلى قوة بدنك، قـوة عقلك وفكرك.

[19] ـقلنسوة البرنس.

...والـدنـيـا لمن غلب

دُق باب جناح العنابية، أذنت للطارق بالدخول. لم يأبهوا بالداخل. واصلوا حديثهم الذي أثارته البرقيات المتناثرة أمامهم.

- ما دمتم متجمعين، كلكم، أود أ أفضي لكم بحديث هام:

كان حمود الجيدوكا يقف متظاهرا بالانتفاخ والعجرفة. حمود هذا، بعد العرس مباشرة، يطيـر من هنا. يذهب إلى الجحيم.

قالت العنابية في سرها، وهي تقطب جبينها، في حين ابتسم الحاج كيان. وراح خـاتم الهزيـة يتكهن بالسر الذي سيعلن عنه، هذا المغتر.

- هات. خلصنا يا سيدي عبد القادر.
- أريد أن أتزوج.
- بعدما شاب، علقوا له الكتاب . على كل حال ربي يسهل.

قالت العنابية، ثم أطرقت تفكر. لماذا جاء يخبرني، وبهذه الهيئة؟ لمـاذا يحـاول الاصـطدام بختومة، دونما أي مبرر واضح. يريد أن يتزوج، يتزوج ولماذا إزعاج الناس. لماذا يخبرني أنـا؟ هل يريد أن يطلب إعانة؟ أنا في حاجة، لكن إذا مرت الأمور كلها بسلام، أعطيـه ثمـانين ألفـا. أخسر وفارق كما يقال.

لعله يفكر في الزواج بها. بالعنابية. الكلب بن الكلب. لهذا السبب إذن يتحامل علـي ويحـاول ردعي. لقد حانت فرصة وضعه في مركزه. يلعق بطيبة خاطره، أقدام كل من بالماخور. فكر خاتم الهزية، ثم وثب إلى حيث يقف. وراح يفحصه من أسفل إلى أعلى.

- ختومة. الرجل لم يقل عيبا.
- بل قال شرا.

ظل الحاج كيان، يحاول تركيز فكره. حمود الجيدوكا سقط نهائيا. يريد أن يتهزز بالذل. نسي مبدأ الهزي الذي صاغه المتنبي منذ قرون، الموت أعذر. الصبر أجمل. الصبر أجمل. البر أوسع. الدنيا لمن غلب. حذرته، من مغبة التمادي في هذا الضرب من البله، لكن الرجل سقط.

طيب، وماذا يمنعك من الزواج؟ هل تخطبني في إحدى العذارى اللائي يربضن ببيتي؟ في أية إدارة تشتغل أيها العريس. ما هي ماهيتك. هل تقطن مع أمك أو مسـتقلا؟ ابنتـي لا تتـزوج إلا ضابطا، أو ابن ضابط. أو مقاولا.

- لعله يخطب يدك أنت؟

قال خاتم الهزية مهددا. فرحت العنابية. إنه يغار علي. سأطلب من الحاج كيان، أن يكتب لـي حجاب محبة، يعمي بصره عن كل امرأة غيري. لاشك أن الحاج كيان، تعلم في جامع الزيتونـة، كيف يسحر العالم.

- أنا أقصد البنت حياة النفوس.

- هأ هأ.

قهقهت العنابية، وتبعها خاتم الهزية، وهو يشعر بإهانة كبيرة توجه إليه، بالأمس حياة النفـوس أجمل واحدة في مواخير الجزائر، عشيقة لي، لي أنا، قاهر الهزيين، أنا الذي رسـمت صـورتها بأربعين ألف فرنك على كتفي، واليوم، يعلن هذا الحمار الهرم عن رغبته في الزواج منها.

- وما موقفها هي؟

تساءل الحاج كيان. فرفع حمود كتفيه، يعلن أن لا موقف لها. اطمأن الحـاج كيـان، وغمـز العنابية يدعوها إلى عدم الاكتراث.

تساءلت المرأة، عما إذا كان هناك من هو أحمق منه، فتذكرت أن خاتم الهزية بالنسبة إليهـا، كحياة النفوس بالنسبة لحمود.

ابتسمت: المشقة صعبة.

- اعتقد يا حمود الجيدوكا أن التفكير في مثل هذه الأمور، يكون بعد العرس أسلم.

أضاف الحاج كيان، في حين عاد خاتم الهزية إلى مكانه بجانب العنابية، محتارا فيما سـيفعله، أو يقوله. هذا الكلب لا يفتأ يعترض سبيلي. بعد العرس، أنهي عجالته. قبل العرس. يجب أن أفعل

ذلك، قبل العرس. الآن بالذات. حتى سقراط هذا، الذي خرج من صقّر، لكـي يسـوس المـاخور بالحكمة والحلوى، يجب أن يغادر المحل. هنا يسيطر المرء، سيطرة كلية، ونهائيـة أو فـلا. أنـا الحاكم بأمره هنا. صاحب الأمر. الأول والأخير. وكل ما هنا، من جدران أو عاهرات، أو عمال، يجب أن يكون في خدمة رغباتي، وسعادتي.

هذه الرقابات، هذه النصائح. هذه الأخوة الشريرة المعلن عنها، كل هذا، له موضع آخر.

قرر خاتم الهزية، ثم نهض واقفا، استخرج خنجره. فتحه بأسنانه. احمرت أذناه. احمر عنقه ثم وجهه، راحت عيناه تتأملان الجدران الأربعة، في الآن الواحد، فتحت المرأة فاها.

نهض الحاج كيان، وقصد الباب. استوقفه:

- انتظر. إلى أين تهرب؟

- ختومة. ذاك الحاج كيان.

امتدت يده. تلقى خدها صفعة قوية. شعرت بلذة ممزوجة بالألم. مدت أصابعها تتحسس موضع الصفعة.

- عندما أكون أتكلم، لا أريد أن يقاطعني أحد.

وقف الحاج كيان في موضعه. ظل حمود الجيدوكا يحدق في الخنجر ذي الحدين.

- إنه صاحب الحق الأول والأخير. أنا لا أنازعه في شيء. ليس من سـبقوه أفضـل منـه. وليس من سيأتي بعده، أفضل منه أيضا. الماخور ماخور. والهزي هزي. لقد أعلن المتنبـي عـن ذلك منذ قرون.

قرر الحاج كيان. وراح ينتظر الأوامر.

- من هو صاحب الأمر هنا؟

- وهل هناك غيرك يا ختومة.

قالت المرأة. سكت حمود الجيدوكا، وبادر الحاج كيان:

- ومن يستطيع في هذا البلد أن ينازعك الأمر؟ إن هزيا فتيا مثلك، لا ينتظر اعتراف عجوز مثلي بهزيته، أنا في الخدمة. لقد أعلنت عن ذلك حينما أعطيتك رزمة الحلوى لتوزعها بنفسك.

- أنت أيها الجيدوكا المشلول. يجب أن تغادر الآن بالذات. تحمل ما عندك من دبش وتطير، تختفي من الميدان نهائيا. انظر جيدا إلى هذا الخنجر. إنني لا أريد أن أدخل في صراع، مـع أي قواد.

- تخرج أو أطلب الشرطة يا حمود. امتثل لأمر سيدك.

كان الموت ينبعث من عيني خاتم الهزية. كانت الزرقة تكسو وجهه الجميـل، وكـان الزبـد يتطاير من شدقه.

- لم يجد حمود الجيدوكا بداً من الانحناء والإذعان، اللحظة غير مواتية، إن كان في إمكانه، أن ينظم أمره بعيدا، ثم يقتحم الميدان، فليفعل ذلك. الآن ليس هناك سوى الانسحاب. الحاج كيـان خان. الحاج كيان انتهازي سافل، ليس في وسعه أن يفعل، غير الخضوع للمعلمة، ولمـن تعشـق المعلمة، حتى وإن كان كلبا.

يعلم أن هذا الولد، ليس هزيا بالمعنى الصحيح للكلمة، لكن يتعامل معه، كما لـو أنـه هـزي الهزية.

- سأحمل حقيبتي وأغادر المحل. لن تجدي يا معلمة من يخدمك بأمـان وإخـلاص مثلـي. ستندمين، إن اليوم وإن غدا.

- قلت أخرج وإلا.

زعقه. أمسك الحاج كيان بكتفه، وأمره بالانصراف. انصرف وهو يتوعد. أعاد خاتم الهزيـة الخنجر إلى حزامه. نهضت العنابية، مرحبة، كأنه عاد من سفرة. أمر الحاج كيان الـذي امتثـل بسرعة:

- هات لي بيرة.

طعم ماء النبع الواحد

انتظر خاتم الهزية أن تأتيه البيرة التي طلبها. شعر بظمأ. شعر بالغيظ. سقراط صقَّر هذا يلعب الغميضة معي. له، كل الحق أن يفعل ذلك، فأنا هزي ضعيف، لو أنني أسندته إلى الجدار، وأمسكته من عنقه، وضغطت وضغطت، حتى تخرج عيناه، ثم أصفعه صفعتين، وأطلب منه أن يقبل قدمي، وحين يحني رأسه، أركله في فمه، فتسقط بعض أسنانه المسوسة. لو أنني فعلت ذلك، لما كان يتأخر في تلبية مطالبي ورغباتي.

سأفعل ذلك، حالما ألتقي به. سقراط صقر الكاب.

- أو رأيت حاجك الزائف هذا. إنه يبدي المودة ويخفي العداء. أنا متأكد من أنه يضمر شرا كبيرا.

- اسمع يا خاتم الهزية. هذا الحاج كيان. رجل شريف ونبيل وشهم. كان عالما في جامع الزيتونة، وأنا السبب في إغوائه. لقد استعنت بكل النساء، لأحمله إلى بيتي، وهناك استوليت على لبه، إنه لم يكن عشيقي، لمجرد العشق، هكذا، إنما عشقته، لأسباب مجهولة، كما عشقتك أنت الآن. إنه كل شيء بالنسبة إلي، يومذاك. كان بلدي. كان قريتي. كان أسرتي. كان أمي وأبي وأخي، والدم الذي يجري في عروقي. أتفهم هذا الكلام يا ختومة؟

- لا. أنا حمار، لا أفهم شيئا إطلاقا.

صفعها، تسابقت الدموع إلى عينيها. شعرت بالخوف. شعرت بالحب. شعرت بالإهانة، أخرجت ثدييها، حاولت أن تسحبه إليها، دفعها بقوة. سقطت على السرير، داهمها بكاء مرير.

خرج إلى الساحة، وراح يزأر:

- يا حاج سقراط. يا حاج كيان. يا حاج الكذب والنفاق، أين أنت. أما شعرت بأنني في حاجة إلى بيرة؟

أطلت الوهرانية، من باب غرفتها، قالت ساخرة:

- الحاج كيان خرج. قال، إن صاحب أمره اليوم هو نفسه. سيغيب يومين أو ثلاثة ثم يعـود؟ من ذا الذي يطلب الحاج كيان؟

- إنك تتجاهلينني أيتها العاهرة.

- لا أتجاهلك، يا شيخ. وإنما أريد أن أفهمك في مسألة يظهر أنـك تجهلهـا. الهـزي فـي الماخور، في أي ماخور، لا يستطيع أن يكون هزيا، بدون مساعدة العاهرات، إنه يتهـزز علـى واحدة، ويخدم باقي النساء، أفهمت؟ إذا ما تعرض الحاج كيان، لأي أذى، سنطردك من هنا.

- يا أنت، يا نحن.

الرجال يقعون في الغواية، من أجل النساء، لا من أجل النقود. المشقة التي تـأتي مـن حـب المال، تدفع صاحبها إلى البنوك، والخزائن، لا إلى المواخير.

لقد اشتغلت في مرسيليا، وفي وهران، وفي الأصنام، وفي الجزائر، وما رأيت سـافلا يهجـر واحدة ليعشق غيرها في نفس المحل. لو أنك رسمت في كتفك، بدل، صورة حياة النفوس المسكينة، صورة ورقة العشرة آلاف لكان ذلك أصدق.

خرجت المعلمة. رفعت رأسها إلى مصدر الصوت. كانت الوهرانية، محاطة بنساء كثيـرات، تزبد، مهددة بكلتا يديها. اتجهت إليها ما إن أبصرتها:

- اسمعي يا المعلمة، نحن اخترن هذا الطريق لنكون حرات. لتكون فروجنا، فـي متنـاول أيدينا، نبيعها، أينما شئنا. لقد اشتغلنا معك حتى الآن بكل نزاهة، وفي جو ملؤه الأخوة والمحبـة. لكن مرضك الذي سلط علينا لصا حقيرا، يظهر أنه سيضع حدا لكل ما بيننا. تعلمين أنني أذهـب كل ليلة خميس إلى عشيقي، الشخصية الكبيرة. وتعلمين أن حياة النفوس، تسـتطيع بإشـارة مـن أصبعها أن تحول هذا المحل إلى سجن، وأن علجية، في أثرها، أكثر من واحد، ممن بيدهم الضبط، والربط، في إدارة الشرطة.

الهزي هزي، والعاهرة عاهرة، والماكريرة[20] ماكريرة، وهذه التصرفات الغريبة، التي لا رأس ولا ذنب لها، لا نفهمها.

ليخرج الولد اللص، من الانقباء، خلفك، ويعلن عن نيته، فنعرف مع من نتعامل.

[20] -يستعمل في الوسط بدل لفظة ماكريله الفرنسية، لنعت صاحبة الماخور والوسيطة بين النساء.

كانت الوهرانية تنفجر غيظا. كان انحناء الحاج كيان، يتحول عندها إلى تطاول. قال لهـا إن مجرى التيار، يتوجب، أن لا يكون له أي وزن، وأن هذه هي الحكمة، وأن اليـأس إيمـان غيـر صحيح، بأن الزمن يتوقف. لقد سيطر الولد بخنجره، وبذراعه، وبشبابه، ولكن لاشـيء يعنـي أن سيطرته نهائية. كل قوي، وراءه أقوى منه، وكل حال لابد أن تعقبها حال أخرى. في كيـان كـل ضابط جديد، يتولى مسؤولية الجزيرة، يُهيأ له أن ما يتصوره من التصريف، ومن الضبط والربط، هو آخر، ما تفتقت عنه عبقرية الإنسانية لحل أزمة كيان.

نفهمه.

إن صبرنا معه شهرا، قلنا هذا قليل. إن صبرنا عنه سنة. قلنا هذا قليل، لكنه مؤثر. إن صبرنا عنه أكثر من ذلك، رأيناه، يكتب العرائض تلو العرائض، ويطلب منا أن نوقعها، يطلب منا بإلحاح وبذل ومهانة، أن نساعده بتوقيع العرائض حتى يعجل بنقله.

ينتهي به الأمر إلى الإيمان، أن حل المشكل ليس رهن شخص معين، وإنما، خلاصة تطـور عام، لنسق الحياة، في مجتمع برمته.

كيان يا ابنتي، وما جرى في الدولة الإسلامية منذ انهزام علي، أو موت محمد بالأصح، ومـا يجري هنا الآن، شيء واحد. صدقيني، فأنا لا أتحدث جزافا، وإنما عن علم وتجربـة، ومعايشـة. المتنبي، يقرر: أن الموت أعذر، وأن الصبر أجمل، وأن البر أوسع، وأن الدنيا لمن غلب. لقد جعل النذل، الدنيا، مفهوما، للقوة والسيطرة وممارسة الحياة. لقد كان هزيا، من نوع خاتم الهزية. ينظر إلى الجدران الأربعة في الآن الواحد. ولو أن عاهراته، كانت الملـوك، والأمـراء، والسـلاطين الواهين.

ازداد حماس الوهرانية، وهي تتذكر كلام الحاج كيان الذي لا تفهم منه الكثير. ارتفعت أيـدي النساء، يؤيدنها دونما مبرر واضح. شعرت العنابية، بأن حياتها، في خطر. التفتـت إلـى خـاتم الهزية. تناولت يده تعيده إلى جناحها، قائلة:

- ليس من الفائدة الدخول في معركة معهن. لو كن يقدرن أو يتبصرن، أو يخجلن، لما كـن، هنا. هيا يا روحي. هيا.

- لكن الحاج الخداع، أين ذهب.

- أرجوك أن لا تهتم بأمر الحاج كيان. أعتبره غير موجود. إنه هو نفسه، يعتبر أن حياته الآن زائدة، وأنه كان من الجائز، أن يموت في أدغال كيان قبل اليوم. إنه لا يضمر لك سوءا يا ختومة، فلم لا تحبه.

- لو كان يعترف بي حقا، لجاب لي قارورة البيرة التي طلبتها. يجب أن يدفع ثمن هذا التجاهل.

التفتت العنابية، قبل أن تدخل جناحها وتساءلت مستغيثة، وهي ترى أن كل شيء حولها، يتحول إلى قفر وخواء:

- وأينه على الأقل. أين الحاج كيان؟

- الحاج كيان، يوجد، حيث تعود أين يوجد، لقد أجبره، لصك هذا، على أن يعيش السبت دون سبت. لقد حمل سلته، وانصرف، ردت الوهرانية، وراحت تغلي في داخلها.

لو فهمني، لما كنا في الوضع الذي نحن عليه. عرضت عليه، أمرين، فلم يأبه لأحدهما. قلت له، يا حاج كيان، معي ما يمكننا من شقة، وتجارة صغيرة. هيا نتزوج، ونغادر الوسط. ننجب أطفالا، نرسلهم إلى المدرسة. يتخرجون. يصيرون أطباء ومحامين، وضباطا. نتحول إلى فيلا. نقتحم من جديد الحياة التي خرجنا منها. نعود بالحسب والنسب، نعطي بناتنا لمن نشاء، ونزوج أبناءنا بمن نشاء، ندخل في نسق أولي الأمر، وندع الذل لأهل الذل، أو نبدأ من طريق أخرى. ما دمنا هكذا، نمسي في الماخور، ونصبح في الماخور، لم لا يكون الماخور ماخورنا، ملكا لنا، نصطنع ماكريرة، وأشتغل أنا إلى جانب كل البنات الجميلات اللائي أنتقيهن بنفسي.

رفض الحاج كيان، وقال:

- يا بنت الناس، إذا كان النبع واحدا، فلم الجري وراء طعم مغاير للماء. أنت تاجرة، هنا أو هناك، وأنا هامشي هنا أو هناك، فلم الخوف، والجري والجشع، إن بال مر على كيان، أطول من أن تهزه عوارض مثل هذه. في الماخور هنا، أنت جزء من بضاعة كبيرة تباع بالتقسيط، من كدس ينقص ويكبر، وأنت في الدار، وفي غمرة الحياة الزوجية مريض بالسرطان، محكوم عليه، بالسير نحو نهايته، خطوة فخطوة، وبدون أية مقاومة. حتى يفتقد الخطوات، وينتهي سيره.

أيها الجسد العسلي، يا ابنتي الوهرانية الجميلة اللطيفة. لا يحسب إلا الشيطان. في زمن الخواء هذا، يكفي المرأة، أن تحب شبحا مثلي، إن المواخير لا حدود ولا حصر لها. وإن البيوت لا حدود ولا حصر لها. فأنت هنا أو هنالك. أنت بطيبتك، وبجمالك.

إذا كنت تثقين في. فثقي أنك أشهى امرأة صادفتني في حياتي الطويلة الشاقة. ولئن كان الهزية، لم يكتشفوك بعد، فذلك، لأن الهزية الحقيقيين، الذين يدفعهم الجمال إلى الغواية، لم يظهروا بعد.

هكذا، بالنسبة لي، أنت خير من عشيقة، وأحب من زوجة، دعيك من أوهامك هذه.

- الحاج كيان، يا العنابية ليس هنا. لقد هرب من محلك إلى حيث لا يعلم إلا الله، لقد ذهب ليعيش السبت في غير السبت، ألا يكفيك أن عجلك معك، يا وجه البومة، يا رأس الشؤم.

شكوة الماء

السماء تروح وتجيء، التينة والصخرتان تروحان وتجيئان. هذا العالم شكوة في حمائر منصوبة في الفضاء، ويد قوية تدفعها هنا وهناك، في انتظار أن يتحول الماء الذي فيها إلى لبن، فيزبد.

تصاعد الدخان. امتد الأصبع إلى حلوى الترك. راح اللسان يتحرك يمينا وشمالا. انتظر أن تخرج خولة أخت سيف الدولة. لكنها لم تفعل. اليوم ليس سبتا ولا أحدا. اتضح أن خولة هي التي كانت تزور الخق وليس أنا.

من هم زوار الإثنين إذن؟

اليوم أنا الزائر. آه، كم هو مريح الموت. إنه الحل الوحيد، للعجز النهائي.

أنا أموت. قبّاض الأرواح يحضر. يا قباض الأرواح، قبل أن تقبض الروح، استرح قليلا. هاك أنفاسا من الغليون، وأصبع العسل. تفضل اجلس. ما هي الأجرة التي تتقاضاها. إنك عبد إذن؟ يا لك من مسكين. هاك أنفاسا أخرى. لا. لا تستسلم للضحك. إنه من فعله. لو لم أرك تضحك، لما صدّقت أبدا أن قباض الأرواح يضحك. تقول: هذه المرة الأولى التي تضحك فيها. يا لك من مسكين. تنفّس وترحم على أبيك الحاج كيان. وكيف تقوى على أداء عملك في هذا العالم الرحب. آه. تقول؛ أنتم كثيرون. غريبة. ما كنت أعلم ذلك. آه. والعالم مقسم إلى مناطق، كل فوج منكم في منطقة. ألم تفكروا في إبدال الشغل؟ ألم تطلبوا ذلك أبدا؟. تقول. وجودكم مرتبط بقبض الأرواح. الأرواح هي بدلات إذن.

قهقه. قاه...هأ هأ...

كل شيء بضاعة، في هذا الكون ،، حتى حياة قباض الأرواح. يا للهزي الذي لا يشبع. إنني مستعد. أرحني يا قباض الأرواح. هاك بدلة.. مع معلمة عجوز، تملك كثيرا من النقود. وكيف

أدعك، أعدلت عن قبض روحي. لا لا لا. الصداقة شيء، وممارسة المهنة شيء. أنا بـدوري لا يساعدني أن أموت. لا. إذا كان غليون أبيك الحاج يشغلك عن عماك، فلن أعطيك نفسا آخر.

هأ هأ هأ. قه قاه.

أضحكتني. ضع أصبع عسل في فمك، مع قليل من الحشيش، وحاسبني. ذق بُلغة حمدان قرمط ، إنها طعام أهل الجنة في الأرض. أعندكم زنوج في الجنة؟ والعبيـد؟ وسـادة الأرض التجـار؟ والهزية؟ تقول: لم تدخل الجنة، ولم تعرفها. يا لك من تعيس. هكذا إذن، قبـاض الأرواح كـائن أرضي إذن؟ جباة ضرائب وخراج، ومحتسبون، اقتطعت لكم مقاطعات ! تفضل، تفضل، اغطـس أصبعك أكثر، امزج الكميتين جيدا، لا يهمك، الكمية تكفي لجميع قباضي الأرواح بالمنطقة. قلـيلا من الهدوء والصمت. مع البُلغة، لابد من التأمل. لا تريد أن تقبض روحي. ليكن. لن أعطيك نفسا آخر ولا بلغة أخرى. أنت أيضا تتمنى أن تقبض روحك. أرفض ممارسة مهنتك حينئذ. انضم إلى حمدان قرمط وصل خمسين ركعة في اليوم، ودع الهيصم يحار في جني المحصول. أما تشـكلت عندكم حركة قرمطة؟ تقول: أنتم نحن، ونحن أنتم، وليس هناك سوى الجبة؟ لا. أنت قباض أرواح متواضع جدا. تواصلت الرحلة نحو الأعماق.

- أنت الآن الخليفة العباسي، المعتز بالله بن المتوكل. أخوك المنتصر، قتل أبـاه المتوكـل، ليستولي على الخلافة، ويموت بعد ستة أشهر بسم طبيبه بن طيغور جئت لتسد الفراغ الذي خلفـه هروب المستعين بالله إلى بغداد. قادة العساكر يبايعونك، فما أنت فاعل.

- سأكون خليفة حقيقيا، سوء أكنت هنا بسامراء، أو هنالك ببغداد. أبي لم يقتله أخـي، ولـم يظلمه الأتراك، قتلته أفعاله العابثة. فما أن تولى حتى سال لعابه لأملاك آل أحمد بـن أبـي ولـد قاضي القضاة فراح يعمل فيهم السيف، وسمح لعدو الرأي والعدل، يحي بن أكثم الشافعي، أن يهدم قبر الحسين، وأن يطلق سراح جميع الفقهاء المتزمتين، ويحرم البحث الفكري وأن يضطهد أهـل الذمة، وأن يهدم البيع النصرانية واليهودية، وأن يجبر غير المسلمين على وضع علامـات مهينـة على لباسهم، وأن لا يركبوا سوى البغال والحمير. وعندما أعجزه إسرافه عن دفع رواتب الجنـد، هرب إلى دمشق. ليعود بعد قليل كالطفل، وتمتد يده إلى أرزاق مساعديه، بما فيهم وصيف.

لم يكن المنتصر المسكين، سوى الحجرة التي تعثر عليها الأعمى، ليسقط السقطة الأخيرة.

أخي المنتصر، لم يقتله أحد. لقد حلت اللعنة بقلبه، فتلوث دمه.

يا وصيف يا بايكباك. يا رخوج. هاكم الهبات. هاكم العطايا. ليأخذ كل منكم مقدار حقده على المستعين بالله، شقي بغداد.

سكت وراح يدقق النظر.

إذا ما أفلحت في استئصال شوكتهم، كنت خليفة حقيقيا.

لتنته هذه اللعبة. ولتعد إلى الخلافة نصاعتها. الخليفة ظل الله في الأرض، وليس ظل وصيف أو بغا، من قتل أبي، لا يتورع عن قتلي، من سمم أخي، مستعد لنهش لحمي. ليقتتل العلوج الترك فيما بينهم، فيما أنا أحاول أن أصفي حسابهم.

إذا كانت المسألة متعلقة بالأتراك، فسأضع حدا للأتراك. نعم وليكن. دعهم يضعفون أولا في محاربة بعضهم، فريق يناصر المستعين، وآخر يناصر المعتز. كل خلاف رحمة. ينبغي أن لا أظهر بمظهر الحازم، قبل أن يستتب الأمر لي، وإلا تحول أعداء المستعين إلى أنصار له.

- ما عندك يا وصيف؟
- أخبار بغداد سارة. العدو يتقهقر.
- لا يهدأ لي بال، حتى يأتيني رأسه يا وصيف.
- رأس من يا مولاي؟
- هذا السؤال محير يا وصيف.

وأضاف في سره، رأسك، ورأس بغي، ورأس الخليفة الآخر.

- وأنت يا صاحب الدولة، ما وراءك؟
- بغداد وسوادها بلا ميرة. والأسعار فيها خيالية، والبلاء يعظم ويعظم، وهناك أيضا، تحركات بين النهرين يا مولاي.
- ألا يزال أنصار بن أبي طالب، ينادون بخلافته بعد قرنين من الزمن؟
- هؤلاء ليسوا شيعة على ما يبدو يا مولاي. إنهم أنغال إفريقيا الذين يعملون في السباخ.
- وما يريد الزنوج؟
- يدعون يا مولاي، أن الإسلام غير مطبق.

- وما يمنعكم من تطبيق الإسلام. مروا العالم كله أن يطبق الإسلام.
- إنهم يستنكفون عن العمل في الأرض يا مولاي.
- مروا أسيادهم بجلدهم. وأنت يا صاحب الخزينة.
- مولاي. الخراج يتعثر. والجباة يضيعون الطريق بين بغداد وسامرا، ويدكم فوق هذا وذاك أطول يا مولاي.
- وأمي ماذا تقول؟
- أم مولاي، على ما بلغني، في حوزتها مليون وثمانمائة ألف دينار. وعدة حمـولات مـن الجواهر والحلي.
- والجند كيف حالهم؟
- لقد نزلوا عن كل مالهم، ورضوا منه بخمسين ألف دينار يا مولاي. لقد أقنعتهم بذلك بعـد لأي.

أجاب وصيف، متحمسا، فاضطر إلى الابتسام، وراح يفكر، فيما بلغه، مـن قـول المسـتعين للأتراك: لقد أجبتكم في كل ما طلبتموه، وأدررت لكم الأرزاق حتى سـبكت لكـم آنيـة الـذهب والفضة، ومنعت نفسي لذتها وشهوتها. كل ذلك إرادة لصلاحكم ورضاكم، وأنتم تـزدادون بغيـا وفسادا وتهديدا وإمعانا .

- إنني لم أنه كل ما عندي يا مولاي.

قال صاحب الشرطة، فرمقه عابسا:

- وماذا أيضا، صدق عمر بن الخطاب إذ قال لا يدخل الجنة جاسوس.
- العلويون أصحاب الحسن بن زيد يستقلون بطبرستان. والصفاروية يفعلـون كـذلك فـي سجستان.
- أرسلوا إلى كل من ينفصل، أن الخليفة يعترف به واليا.
- نعم الرأي يا مولاي.
- هيا اغربوا عن وجهي.

مسكين المستعين بالله. قتلوه في طريقه إلى واسط. أحمد بن طولون الذي سلمه للقتل مع أنـه اختاره لصحبته إلى المنفى، يجب أن يبعد. يذهب إلى مصر. ما دام القادة والجند يحاربون الزنج، والصفارية والعلويين، يجب أن أستخلفهم بسرعة بالمغاربة. هيا أيها العرب. هاكم ما كنـتم طيلـة حياتكم تلومون العباسيين عليه. تعالوا احموا الخليفة، فإنني لأخاف أن ينزل علي بغا من السـماء أو يخرج علي من الأرض .

الآن أنا مطمئن. مصيري لم يعد بين أعلاج الترك وحدهم. إخوتي العرب في الجـيش ولـن يسمحوا في، مهما كان الأمر.

هات المال.

لا مال، يا أمي، يا ذات المليون وثمانمائة ألف دينار أعزي ابنك المعتز بالله بخمسـين ألـف درهم. لا مال. يا موسى بن بغا؟ تعال إلى هنا. اصنعوا صندوقا من الدبابيس الحادة، أيها المغاربة والأتراك حاكموه. أغلقوا عنه، وقلبوه على جميع الجهات. لا يريد أن يدفع أجرتكم.

لا مال. الخلافة أعم من أن تكون عربيا أو تركيا أو زنجيا، لن يكون الترك أو العرب أو الزنج، أكثر شفقة علي من أمي، أو من المنتصر أخي.

أن يكون المرء خليفة، أو سيد أرض، الأمر سواء.

هنا الجند. هناك الزنج.

الوضع كله فاسد. لن يصلحه خليفة، لن يصلحه دين. ليتني ما رضيت بمزاحمة المسـتعين، إذ ما الذي يدفع إلى البكاء من لم يحن دوره في ذلك.

آه. هذه المسامير. آه. حلي أمي وجواهرها ودنانيرها.

عصفور الجنة

ما أن وجد حمود الجيدوكا نفسه خارج الماخور، حتى شعر بأن الحياة خواء، تلهّفٌ على طعم لذيذ، وجو دافئ، وفراش وثير، هذا ما يشغل الناس، كلما انحدروا اقتنعوا، وكلما صعدوا تلهفـوا. بهائم في بهائم. لا يليقون إلا لحمل الأثقال وجر المحاريث. أعداء، جميع الناس أعداء، يجـب أن يسحقوا بالجملة وبالتفصيل.

تفو.

واحد هنا يبيع الخبز. آخر يبيع الزيت والملح. آخر يبيع الجنس، أخر يبيع الكـل، ويشـتري الكل، ولا يقبض شيئا. ماذا يفعل، من لا يجد ما يبيع؟ من ليس له مكان يبيع فيه؟

يموت. يموت إن كان ضعيفا، أو يمد يده يبيع البكاء والاستعطاف والـدعوات، إن لـم يكـن ضعيفا يجد مكانا له، يدحس برجليه ويديه، حتى يجد فراغا يحتويه.

أنا حمود الجيدوكا، لست ضعيفا، أبدا لست ضعيفا، لا تزال علجية تعشقني، ولا أزال أقـارع أبناء العشرين، أنا حمود الجيدوكا قوي، أقوى من جميع هؤلاء الذين يبيعون ويشترون. إذا كـان الماخور مأوى لجميع من له بضاعة يبيعها، وصدرا رحبا، لجميع من له نقود يشتري بهـا تلـك البضاعة، فإنه لا يضيق أيضا، بقوي مثلي له يدان قاتلتان. حمود الجيدوكا، سيظل حمود الجيدوكا، صاحب الحزام الأصفر، حتى آخر رمق من حياته. سيموت وعليه حزام أصـفر. يمـوت موتـة شريفة، كاليباني. أرتب الأمور، أنظم هيئة أركان تساعدني، وأعود، أمـرغ خـاتم الهزيـة فـي الأرض، أحطم أنفه، يدخل في خدمتي، أو يغادر المدينة.

نعم أنا حمود الجيدوكا، هزي الهزية.

صاحب الذراع يطال حقه، والضعيف يموت. والخرائب التي لا نبـول عليهـا حـين تكـون خرائب، يأتي يوم وتصير...، تنال احترام جميع الناس. البنت حياة النفوس، لـي ولـي وحـدي. سأتزوجها. سأتخذها خليلة. ستشتغل لي. سيكون كل ذلك في الوقت الواحد.

يجب أن أنظم نفسي بأقصى سرعة. علي أن أكون مستعدا للحضور في العرس، ولنيل نصيبي منه.

قصد رأسا، ماخورا خربا، صانعاته كلهن عجائز تجاوزن الخمسين، يقفن عاريات، في أبواب حجراتهن المتصاقبة ذات الأبواب الزرقاء. عليهن كميـات كبيـرة مـن المسـاحيق والشـعور الاصطناعية. في أفواههن سجائر، يستمددن منها الدفء، رغم حرارة الطقس.

كان الصمت يرين، وكان الذباب يطن، وكانت رائحة البول تنبعث من كل زاويـة بـارزة، أو صخرة ناتئة في الجدران. غمزته إحداهن، ونسفت وجهه بدخان أزرق. لم يلتفت إليها. إهانة لحياة النفوس، أن أعرض نفسي لمثل هذه السخرية. شمخ، ومر متبخترا.

قصد كوة صغيرة في الجدار، ذات باب أزرق أيضا، ينبعث منهـا لحـن وهرانـي صـارخ العبارات الجنسية، أمامه عدة صناديق من قوارير الجعة الفارغة، انحنى. وجد نفسه وسط غرفـة ذات لون أحمر داكن، تغطي معظم جدرانها، صور نساء فـي مختلـف الوضـعيات، وبمختلـف الأحجام والألوان، خاف المشرب الصغير، يقف شاب في عمر خاتم الهزية، يرتدي قميصا شـفافا أخضر وسروالا أبيض من قماش رهيف، شعره الكستنائي، ينام في وضع جد أنيق، يلمع بالدهان. في عنقه منديل أحمر وفي معصمه ساعة مذهبة. نحيف، وجهه تعلوه سحابة دكناء.

ملأت خياشيمه رائحة أبخرة متعددة. دهش للجو الغريب.

- مرحبا بك، حمود الجيدوكا.
- أهاه. تعرف اسمي أيضا؟
- ومن لا يعرف حمود الجيدوكا أسد دار العنابية. نراك دون أن ترانا، يا خويا يـا حمـود. كيف حال الحاج كيان، أنا عصفور الجنة. هأ هأ. هكذا اسمي.
- الحاج كيان بخير. دعنا منه. هات لي بيرة.
- بيروة أو أية حاجة أخرى؟

- كما تشاء. لكن قل لي، أولا، أبحث أين أبيت عدة ليال. وأبحث عن باباي البوكسور.
- يمكنك أن تسكن هنا دهرا كاملا. العجائز هنا في حاجة إلى من يؤنسهن في وحدتهن، وينهر عنهن الذباب.
- ماذا تقول يا رجل؟ أو نسيت بعد، أن حمود الجيدوكا هو الذي يتحدث إليك.
- أقصد، من يبادلهن الحديث. إنهن لا يتحدثن مع بعضهن إلا حين يتخاصمن، كل واحدة ترى أن جارتها، أبشع عجوز على وجه الكرة الأرضية. هأ هأ.
- لم تسقني بعد؟
- آه. هاك هذه السيجارة الأمريكية أولا، إنها مشحونة، بكمية كافية لنقلك إلى بلاد الواق واق.
- أهي ....؟
- نعم.
- لم أتعود ذلك.
- جرب. ستبغض البيرة وغازاتها، والنبيذ وجنونه. ذق الحكمة. وربنا ورحمته.
- هات.

أشعل السيجارة. وضع عصفور الجنة ذرات من البخور فوق كانون كان خلف المشرب. تصاعد الدخان. غير الأسطوانة من على الحاكي، انبعث صوت فريد الأطرش ممزقا للقلوب: *نجوم الليل دموع تبكي عذابي وشقاي، سواد الليل سطور تحكي لوعتي وأساي، ليه الظلم ليه، ليه يا ربي ليه .*

- سأعود بعد قليل.

قال عصفور الجنة. وخرج. سرعان ما نسيه حمود الجيدوكا. كان وسط بحر زاخر بالنمل. أمواج عظيمة من النمل، تمتد وترتفع. العالم كله بحر واحد من النمل. أنت فقط تختلف عن النمل، لكن ها أنك تتحول إلى كيس كبير مليء بالنمل. إنها تكتشف ثغرة في رأسك، وسط الجمجمة بالذات، إنها تدخل بسرعة خارقة، لتسري في كامل جسدك تلتهم ما فيه. أنت فعلا تتحول إلى كيس من النمل.

ليس في البحر سوى النمل. الكيس نمل، والنمل كيس.

لو أنك تتمدد، لو أن الكرسي، أقصر بقليل. حين يكون العشب الأخضر مبتلا، بالندى، لا يليق بالمرء أن يتمدد فوقه، ولا أن يسير حافيا. لينتظر حتى تداعبه الشـمس وتجففـه. يتمـدد إذ ذاك، ويستسلم لإغفاءة لذيذة.

لو أن حياة النفوس لم تكن خيالا وطيفا، لاستأثرت بها. أنسف جميع من فـي الأرض. أبقـى منفردا بها. أضعها فوق ربوة عارية، وأتمدد متفرجا عليها.

لكن لم لا أتحول طيفا وخيالا، فألحق بها. أية صعوبة في ذلك. لا. المحب يتبع حبيبه إلى واق واق، والثلث الخالي، وجزيرة العشاق.

أنا طيف. أنا روح. أين أنت يا حياة النفوس، يا روح الكون.

دخل عصفور الجنة أولا، تبعته امرأة في الخمسين، حيت وجلست. مد حمود الجيـدوكا يـده مصافحا، وظل وقتا طويلا يحتفظ بيد المرأة.

من أجل حياة النفوس

نصب خاتم الهزية أحد مساعديه، في المشرب، في انتظار العثور على كهل أو شيخ، يستطيع أن يؤدي المهمة، بسعة بال ورحابة صدر، وكلف مساعده الآخر، بإتمام إجراءات العرس، وبالاتصال أولا وقبل كل شيء، بمن تولى جمع أطفال الفقراء والمعوزين، وهمس في أذنه:

- لابد أن أعرف مصير حمود الجيدوكا، وإلى أين يذهب الحاج سقراط صقّر.
- لن يطول أمر ذلك.

ثم التفت إلى العنابية، معلنا بابتهاج:

- وهكذا لا أحد ضروري في هذا المحل، كما ترين، الضروري الوحيد، هو هذه، الذراع. القوة.
- كما يروق لك يا ختومة، إلا أن الحاج كيان، ضروري، إنه أب وأخ جميع الصانعات هنا. إنهن يبكين في صدره حين تمتلئ عيونهن بالدموع يا ختومة.
- إذا كنت تثقين بالحاج سقراط هذا، فلا مانع عندي من بقائه، شرط أن لا يدخل أنفه في أي شيء. وأن يعتذر أولا وقبل كل شيء، عن عدم تلبية رغبتي في قارورة البيرة.
- وأنا وأنا الوحدانية. وأنا قليلة الوالي .
- عيني يا عيني. رحنا وراحوا عنا ولا حد منا اتهنا .

كانت النبرات، إلى جانب شُحَن الحزن، والأسى التي تحمل، تعبر عن يأس ولا مبالاة. لقد شعرت النساء، كلهن، بما في ذلك المعلمة، أن هناك شيئا تغير في المحل، وأن هذا التغير ليس بالجديد عليهن. إنه طبيعي، بالنسبة للحياة الرتيبة، المرحة إلى حد ما، التي مرت، مدة شهر كامل.

عندما بكت الوهرانية، مثارة بالأغنية، قالت لها جارتها:

- *المذبوح مذبوح، للعيد أو لعاشوراء*. فارقنا أهلنا وذوينا، آباءنا وأمهاتنا وإخواننـا وحتـى أبناءنا، لم نأسف، فما بالك بهذا العشيق أو ذاك؟

- ولكن يجب أن نضع حدا لهذا الأهوج.

- لا يا أختي لا. أهوج نعرفه، خير من أهوج لا نعرفه، نحن لسنا في جامع. إننا في ماخور، غارقات في الغواية والمشاكل إلى أذقاننا، فلماذا نتدخل في شؤون غيرنا. من لم يعجبهـا الوضـع منا، تغير المحل، وربنا كبير ورحمته واسعة.

رن جرس الباب، دخل القروي، اتجه مباشرة إلى البهو.

دق بعصاه على المنضدة. أتاه القائم على المشرب يتبختر، أمر أن يحضر إليه، قبل أن يصله:

- بيرة غير باردة كثيرا.

ولى مسرعا، هذا أول زبون سيخدمه، ليتدرب فيه كما ينبغي. لولا ختومة، ولولا عرس بغـل هذا لما لوثت يدي بأي شغل مهما كان. العرس قريب على كل حال.

عندما أبصر حياة النفوس في الشرفة ساهمة، هتف وهو يشير بعصاه:

- يا حلوة الحياة، ياه ياه.

أبصرته. ضحكت. أشار بيده، نزلت تتثنى بقامتها الفارعـة الرشـيقة، البيضـاء المحمـرة، وبشعرها المنسدل على صدرها.

شعر بالأرض تهتز تحته وتميد. شعر بقلبه ينفطر. إذا ما قبلت – ولابد أن تقبل- آخـذها الليلة بالذات ننهي الإجراءات القانونية، نتزوج، ينتهي الأمر. تبقى الأولى التي زوجني أبـي بهـا قسرا، في البادية، وأعيش مع هذه في المدينة. لن أغادر العاصمة حتى أعود بها.

- ماذا قلتِ يا حياة الحلوى، هل نسافر الليلة؟

- إلى أين، يا روح عيني؟

- إلى دارك يا عزيزتي.

- ولكن لم كل هذه العجلة. هل شبعت مني هكذا، فأردت أن تمسخني إلى زوجة؟

- لا يا حلوة الحياة. صلاة الفاهمين ماذا يبطئها؟

- أنا صغيرة. لم أشبع من دنياي بعد، وهذا وعد الله والمكتوب، وإن شئت الصراحة، أرفض أن أخرج في الوقت الحاضر. لم أجمع ما يكفيني من النقود، ولم أحصل على ما يرضـيني مـن الحلي. من وصل إلى الماء يجب أن يرتوي يا روح روحي.

- انظري. لقد أحضرت إليك هذا العقد اللؤلؤي هدية. إن جيدك الطويل، حرام أن لا يزينـه اللؤلؤ.

- أوه كم هو جميل !؟

- قدمي رأسك، سأضعه بيدي في عنقك يا غزالة، ياريم.

- وأحبابنا بالروح جاروا علينا.

تردد الصوت في الطابق الثاني. دق الجرس. دخل زبون يسأل عن حياة النفوس. التفتت. كان الشاب الأسمر، الذي أوشك أن يصطدم مع خاتم الهزية بسببها. ابتسم. رجته أن يعذرها. رفض.

- هو قبلك. أنظر إلى الهدية التي قدمها لي.

- لا يهمني. سأنتظر. اشتريت بدلة اتصال من أجلك. أنا آتي هنا من بعد أربعين كيلـومترا من أجلك دون غيرك.

طال الحوار. اغتاظ القروي. شعر بأنه صاحب الحق، الذي يجب، على جميع الناس، أن يعلنوا أنه على حق، لعدة أيام. لقد أقدم على إهداء، عقد من اللؤلؤ، لامرأة في مـاخور، مـن أجـل أن تتزوجه، وفي هذا ما فيه من سيماء الحب والتضحية والشهامة أيضا. فليحترموا شجاعة الرجـال، هؤلاء الحضر، أصحاب ستين وسبعين دورو.

ارتفع الصياح. خرج خاتم الهزية. راح ينظر في كامل الجهات. سأل حياة النفوس عما هنالك. رفعت كتفيها، وهي تشير إلى العقد. خفق قلبه.

- هذا حظي التعيس. كلما طلبتها قيل لي أنها منشغلة. أنا لا أستطيع مع غيرها. مسألة ذوق كما ترى.

امتلأ قلب خاتم الهزية بمشاعر لم يستطع أن يحددها. إنه غار منها. حسدها. غار عليها. حسد القروي والشاب الأسمر. استشعر تفاهته، بسبب ارتمائه في أحضان العنابية...لو أن بين يديه كأسا أو قارورة، أو فنجانا، أو أي شيء ينكسر، لكسره. عندما يكسره، سيشعر لا محالة، بأن الصـفاء

يعود إلى قلبه. ألا ليت حياة النفوس هذه، دمية من فخار، يقذف بها إلى أعلى، ويرقبها وهي ترتطم بالبلاط وتتهشم.

- اصعدي مع الرجل، ثم عودي إلى جليسك.
- لا. لا تتدخل في مثل هذه الأمور.
- وهل هو أخوك أو زوجك؟ يا له من شهم !

اغتاظ خاتم الهزية. لقد وجد المبرر لتكسير شيء ما. ليصفع هذا القروي المغفـل صـفعتين، ويقذف به إلى الخارج. قرأ البدوي الشر في عينيه. نهض بسرعة، تأخر إلى الخلف، وقف الشاب الأسمر يتفرج، ويداه في جيبي سترته.

- إنني أحذرك. إياك وهذه الحماقة.

لم يهتم خاتم الهزية. ركض نحوه. جانبه الرجل. حمل عصاه إلى فوق. هوى على يديه بكـل قوته. الجمل يناخ بالضرب على الركبتين. هكذا:

- هس... قه. يا بعير.

تأوه خاتم الهزية. شعر بألم شديد في يديه. كانت الضربة قوية، مشحونة بالحقد والكراهية. لم يكد أن يستعيد نفسه، ويقوى على تحريك يديه، حتى شعر بالموت يداهمه. تلقى ضربة قوية فـي عرقوبيه. كانت الضربة أقوى وأحد من الأولى، وأشد إيلاما.

- هس. هس. قه، قه يا بعير.

مد يده ليستخرج الخنجر، المعركة جدية، ومصيرية، هذا القروي القذر يجب أن ينهـزم بـأي ثمن. أصوب من بعيد الخنجر إلى ذراعه، أو إلى صدره. ليمت. كاب مات. المعركة حاسـمة. إن انهزمت، فقدت هيبتي بين مساعدي، وبين العاهرات.

ما أن كادت اليد تبلغ حزامه، حتى جمدت في موضعها. ارتخت أصابعها، وفقدت القدرة، على الحركة. اليد اليمنى التي عليها الاعتماد، عزلت نهائيا. بدأ الألم في الذراع ثم انحدر.

- هس. هس. قه ، يا ناقة.

انحنى خاتم الهزية قليلا، عندما تلقى الضربة الثانية على العرقوبين. لم يكد ينشغل بالألم الذي اعتراه في ركبتيه، حتى كانت العصا تهوي بقوة على قفاه.

- هس. هس.

سقط خاتم الهزية. جاء مساعده يجري شاهرا خنجره. تركه القروي حتى اقترب. جانبه قليلا، هوى على يده بضربة قوية. سقط الخنجر على البلاط، محدثا رنينا، حاول مساعد خاتم الهزية أن يختطفه، هوت ضربة قوية على قفاه، بقي في مكانه.

- هس. هس.

كانت النساء واقفات معجبات، بالحركات القليلة الفعالة.

حياة النفوس والوهرانية وعلجية، متحمسات جدا. المعلمة مشدوهة، مأخوذة بسرعة المعركـة. الوحيد الذي يبدو أنه لم يتأثر هو الشاب الأسمر. ظل واقفا، ويداه في جيبـي معطفـه، إحـداهما تتحسس بدلة الاتصال النحاسية.

- الإنسان بنقوده، ويتعرض للمشاكل. لست أدري، ما إذا كان علي أن أنتظر أم أعـود بعـد مدة؟...

استرجعت العنابية وعيها. أسرعت إلى خاتم الهزية تجس نبضه، كانت أنفاسه تصعد وتنـزل ببطء. رمقت القروي الذي عاد إلى المنضدة يتمم بيرته، ويدعو حياة النفوس إلى مجالسـته. لـم تعرف ما إذا كان ينبغي أن تحقد أم أن تعطف عليه.

رغم أن الولد ولدها. روحها، ودمها، كيانها، وبؤبؤ عينيها، فإن الدلال كثيرا يفسـده. يشـعره بالطغيان وربما يبتعد عني.

الولد كان بحاجة إلى تأديب، طيلة هذين اليومين. المسكين، إنه يموت. سأفقده. سأموت علـى إثره.

- هيا يا عاهرات، أعنني على حمله إلى الغرفة.

أمرت إحداهن بإعداد ماء ساخن. وأخرجت ثديها. ما إن لامست حلمتها لسانه، حتى تحـرك. راح يلهس ببطء. بان لها، خلال الدموع، إنه في قماط أبيض وأن رائحة الرضيع، تعبق منه.

انحنت ممتلئة بحبه، وطبعت قبلة على جبينه.

السباحة

قادت المرأة، حمود الجيدوكا، من يده إلى مقرها. انقاد لها، متخيلا أنه شبح يسبح في عـوالم وردية مع حياة النفوس، أجلسته فوق فراش صوفي على الأرض، وضعت وسائد تحت مرفقيـه، وبين ظهره والجدار، بعد أن نزعت حذاءه. شعر بالراحة التامة. زال عنه كل ضيق. طابـت لـه السباحة في عالم الأرواح. أحضرت كانونا، وضعت فوقه إبريق الشاي. أشعلت عودا بنيا، انبعثت منه روائح طيبة، وفتلت سيجارة.

- خمس سنوات، وأنا مع العنابية. آخر الأمر، أجبرتني على الخروج، جوعتني، ثم طردتني. عندما كان القياد والشنابيط، والجندرمة، يشربون معي صناديق البيرة، كنت عزيزة، وعندما بدأت البنات الصغيرات يتهافتن على محلها، أجبرتني على الخروج. جوعتني وطردتني.

- العنابية مجنونة.
- مع أنها أكبر مني، فإنها لا تزال تشتغل.
- العنابية بدأت تعشق.

استولى عليه الضحك. سلم نفسه للضحك. كان يضحك ويشير بأصبعه إلى الكـانون. عجـوز مثلها، في الخمسين، تعشق طفلا في العشرين، الغريب أن الطفل أيضا يعشقها.

قبلني يا خاتم الهزية. هاتي عشرة. هاك. احتضني يا خاتم الهزية. هاتي عشرين. هاك. نم إلى جنبي يا خاتم الهزية. هاتي مائة. هاك هأ هأ.

وتعشق ق...ق...ق. المرأة مجنونة بحق. عندما يأكل دراهمها، يركلها ركلتين. يبصق علـى وجهها، ويهرب إلى غيرها. نعرفهم. نعرف هزية الدراهم. يعشقون حتى الكلبات. هأ هأ.

غلى إبريق الشاي. أنزلته، صبت منه في ثلاثة كؤوس. ذرت فيها مسحوقا أسود. ناولته كأسا، وراحت ترتشف بدورها بينما بقيت الكأس الثالثة في انتظار عصفور الجنة.

- لو لم تكن سافلة بحق. كيف تطردني بعد العشرة الطويلة؟ جوعتني وطردتني.
- أنا أيضا طردوني من هناك.
- هكذا إذن يا حمود الجيدوكا. أنت والخدمات التي قدمتها. الأسود كنت تقذف بهم من صدورهم خارج الباب. لا أمان في دار الأمان.

اغرورقت عيناها. تسابقت الدموع إلى عينيها. شهقت. انفجرت بالعويل، انتقلت العدوى إليه بسرعة.

خيل إليه، أنه كان منذ دهر طويل، يتهيأ للبكاء، وأن اللحظة الحاسمة قد حانت.

لم يبك سابقا إطلاقا. الجيدوكا لم يعرف البكاء أبدا.

كان ينتظر هذه اللحظة، فليفعل.

خفت صوت المرأة، بينما ظلت الدموع الغزيرة تنهمر من عينيها. كانت الغصة التي تملأ صدرها تذوب شيئا فشيئا.

- يا خويا حمود الجيدوكا. الدار دارك. الغرفتان والمطبخ، والدنيا واسعة وربنا ورحمته. لن تكون في حاجة لا إلى أكل أو شرب، أو لباس. ما زلت بصحتي. ثم إنني شريكة لعصفور الجنة في المشرب، وبعض التجارات. ربنا ورحمته، والحسود لا يسود. ولتبق العنابية دمية محطمة بين أقدام الأطفال. هأ هأ.

ضحكت. ضحك حمود الجيدوكا أيضا.

- لا. ليس دمية. إنما كلبة جرباء، يقذفها الأطفال بالحجارة كلما رأوها. هأ هأ.

امتلأت الغرفة بالقهقهات، لحظات طويلة، ثم أخذ الصمت يرين شيئا فشيئا. اقتحم عصفور الجنة الباب، تفوح منه رائحة عطر قوية.

- أين كأسي؟
- هو ذا. من بالمشرب؟
- أغلقته. لا أحد. الزبائن المحترمون، أخذوا بضاعتهم ومروا، ولم يبق غير أن نغلق.
- أنقيمها؟
- كم الساعة؟

- وما يهم. *اللي في ايده كل ليلة عيده*. أين العود؟
- في الغرفة الأخرى. هات لي دفي معك.
- وباقي الجوقة؟
- لا يهم. عندما ترتفع الرنات، يفزعن، الواحدة بعد الأخرى.
- ذرحي لنا سيجارة جيدة يا رئيسة الملاح.
- تستحق. يا عصفور الجنة.

علا الدخان. عبقت الأبخرة. بقبق الإبريق على الكانون. طاب الجو. راق الاسترخاء.

اعتدل عصفور الجنة، في جلسته، ثم راح يتفقد أوتار العود، بلمسات لينة من ريشته. تسمع ثم تسمع، حتى اطمأن إلى كل الأوتار. جذب نفسا قويا من السيجارة التي قدمتها له رئيسة الملاح، ثم مررها إلى حمود الجيدوكا.

وبدأ العود يحكي.

- الله الله يا فريد.

قالت المرأة، محاولة أن لا تهز الدف في يدها، فيتحرك بصوت نشاز. في حين راحت الأنغام ترتفع. وأصابع عصفور الجنة، تنقبض وتنفرج، ورأسه، يعلو وينخفض، بينما عيناه مغلقتان:

- يا روح يا روح...روحي.

أنت في قفار، الشمس ساطعة، والحرارة بالغة. تنزل من بطنها على رمـل سـاخن. تلعقـك باستعجال، لتشعرك بأن الوقت يجري أسرع منك ومنها، وأن القفر أوسع منك ومنها. ينبعث مـن بعيد زئير أسد جائع. يأتي مع الريح عواء ذئب ظامئ. الخطر الماحق يهز كيانك. أنـت تحـاول النهوض. إنك تنهض.

الوقت أسرع من الظبية وابنها. والقفر أرحب من عدْوهما. هيا انهض. استرقْ مصـات مـن ضرعها، ما دامت مستسلمة.

أمك تنطلق في البيداء، زئير الأسد ينبعث قريبا منك. عواء الذئب يسيطر على الـريح التـي تحمله. ماذا ستفعل؟

إذا ما انشقت الأرض وهيأت لك مأوى، فإنك لن تدخل. الظلمة تخيفك، والحصر يقتلك.

الزئير يقترب أكثر. العواء يصل بدون ريح.

أمك المسكينة، لا يسعها أن تفعل من أجلك إن عادت إلا أن تعطيك لبنـا. الزئيـر والعـواء يخيفانها بدورها. ماذا إذن؟ انطلق فانطلق.

مهما كان الوقت سريعا، ومهما كانت الصحراء فسيحة، فأنت أسرع من الأسد، وأقفـز مـن الذئب.

سيزأر الأسد خلفك، وينبطح في موضعك. ستضيع رائحتك في الفضاء، قبل أن يصل الذئب.

هيا. ثب. ثب. اقفز.

جاءت النساء. اكتملت الجوقة. ترددت أنغام وألحان مختلفة. امتزج العود والدف، والأصـوات المنهارة مع بعضها. ظل حمود الجيدوكا، في مكانه حتى صباح الغد حيث وجد نفسه فـي منامـة حريرية، إلى جانب رئيسة الملاح.

شعر بالتقزز. غادر الموضع دون أن يوقظها. بحث على باباي البوكسور. وجده لبانا في حي فقير، عرض عليه مشروع الاستيلاء على عرس بغل العنابية، أجابه:

- الطائر الحر، لا يتخبط حين يقع.

طاف بمحل العنابية مرات عديدة. حاول أن يدخل فلم يجرؤ. تاق إلى حيـاة النفـوس، إلـى الوهرانية، إلى الحاج كيان، إلى علجية أيضا.

لم يجرؤ على الدخول، حل المساء، كان جائعا. كان خائفا. كان وحيدا.

راحت قدماه، تجرانه، في الطريق إلى عصفور الجنة. إن لم يكن اليوم فغدا. مهما كان الوقت أسرع، والبيداء أرحب، فابن الظبية أسرع من الأسد، وأقفز من الذئب.

إن لم يكن اليوم فغدا.

عندما كان في غرفة رئيسة الملاح، كان العرس مقاما. العود يترنم. النـاي يصـدح. الـدف يجهش. الأصوات المجهدة تسبح: *سيدي. سيدي وعزيز علي، سيدي سيدي، وعزيز علي. ما عز منو غير رب العالمين.*

الحسابات المتوازية

رن الجرس، فتحت المعلمة بنفسها الباب، قدم وفد عنابة. رن مرة ثانية، قدم وفد تلمسان. رن، دخل وفد الجلفة. تواصلت الوفود. نزلت البلاد كلها، شرقيها وغربيها، ضيفة عليها.

الوفد يتشكل من المعلمة، وفتاتين رائعتي الجمال، وخمسة أو سبعة أعيان، يرتـدون الألبسـة التقليدية، وفي أيديهم خيازر، وعلى رؤوسهم عمائم صفراء مشدودة بخيوط سوداء. الهدايا، كلهـا تتمثل في قطع ذهبية، حسب ما قدمت العنابية، هدية، عندما دعيت، وأحيانا كثيرة، أثمن من ذلـك. إن حضور العنابية في حد ذاته، هدية، ما بعده من هدية، لدى من تفهم معنى معلمة لمحل ذي ستة أبواب.

امتلأ المحل بالجمال. بالفتيات الجميلات، وبصناديق الجعة وقـوارير الأنيـزات وبالأعيـان المعممين بالحرير الأصفر، والخيوط السوداء.

- هناك ما يقارب المليونين هنا، ربحا صافيا.

قالت في نفسها، ثم أشارت إلى خاتم الهزية، وإلى مساعديه، وإلى الحاج كيان باتباعهـا إلـى جناحها.

- اسمعوا. الغرف كلها. والأسرة كلها، والكؤوس كلها، توزع توزيعا عادلا بين جميع النساء.
- وجناحك؟
- جناحي، يخصص للآغوات والبشآغوات والقياد والهزية. أين تريدونهم أن يذهبوا؟
- أطلب أن نضاعف ثمن المشروب، حتى لا نحرج الضيوف، بالإلحاح بالمزيد من الشرب.
- فكرة معقولة.

ردت العنابية، على اقتراح المساعد الأول لختومة، ثم راحت تصغي للمساعد الثاني.

- أنا أقترح أن تحذف بدلات الاتصال، بين الإدارة والصانعات. كل من يدخل هنا، يجب أن يعتبر متصلا، سواء أرغب في ذلك أم لا. والثمن يذهب مباشرة إلى الإدارة.

- صحيح. صحيح.

قالت العنابية، وعندما شعرت بأن العبارتين، فلتتا منها، استدركت:

- لا أحد يمنع من الدخول. لقد دعونا الجميلات وعشاقهن. العرس مقام، وكل من قدم، مرحبا به، لا ميز ولا تمييز. العمل هنا. في الداخل يا ختومة. إن كنتم متيقظين ومستعدين، لن يجد أحـد المجال لركوب رأسه، وإن كنتم منحلين، غارقين في العبث مع البنات، وأؤكد بإلحاح على الجملـة الأخيرة، فإن كل ما يحدث، يكون معقولا. المسألة، كالعادة، متوقفة على وجود رجـال حـازمين. ماذا تقول يا الحاج كيان؟

- كلامك حق. هكذا تجري الأمور عادة.

- وماذا تضيف؟

- لاشيء. الأمور كلها تجري على ما يرام.

- أنت أين تكون؟

- أعتقد أن هذا ليس بهام. ما دام ختومة ورجاله هنا، فإن وجودي، وعدم وجودي سواء.

- كيف تقول ذلك؟

- في الأول أكون مع الأطفال. في المستشفى، أنوبك هناك. أدفع الهدايا إلـى العوائـل، ثـم أحضر، على الأقل، عشاء أو إثنين. إن عرس بغل، لا يجب أن ينسينا صلتنا الحقيقية بالمجتمع.

- وبعد ذلك؟

- والله. لا تحرجوني. بعد ذلك. ربنا ورحمته – كما تقولين- . إذا ضـاقت الـدنيا بالحـاج كيان، فلا وسعت أحدا.

- لا. لا. نريدك هنا.

- قال ختومة، في لهجة لا تخلو من سخرية، فأضافت العنابية دون شعور منها:

- صحيح. صحيح.

كانت رنات الجرس تتواصل. وكان قلب العنابية يدق في كل مرة. امتلأ المحل، بالمـدعوات والمدعوين، وبالزغاريد والقهقهات، ومختلف الروائح. كانت كميات كبيرة من الذهب معلقـة فـي صدور وأذرعة النساء، وكانت أسنانهن تلمع صفراء بدورها. التفتت العنابية إلى خـاتم الهزيـة، ورجته، أن يتواجد وسط المدعوين والمدعوات، ثم أغلقت الباب خلفه، واتجهت إلى الحاج كيـان، تطلب رأيه النهائي في الأمر.

- أنت صاحب فكرة العرس، أنت أبصر منا جميعا، يا عمي يا الحاج كيان.

- هربي كل مبلغ من النقود يتجمع، خارج المحل، دون أن يعلم خاتم الهزية أو مساعداه بذلك. إنني أرى بعض وجوه تنذر بالشر، تطوف بالماخور.

- إنك لا تثق في ختومة، لا تحبه.

- لا أثق في هزي، ولا أحب هزيا أيضا، أخشاه نعم، أما أن أحبه، فهذا غير معقول.

- تعتقد أن ختومة يفعلها.

- يفعلها ويفعل أكثر منها. قد يقتل إلى جانب السطو أيضا. ماذا فعل بدراهم الفيلا؟

- غدا نتسلم السيارة؟

- باسم من اشتريتموها؟

- وهل لذلك أهمية؟

- اسمعي يا عنوبة، لا ضير أن تقع صانعة صغيرة في قبضة هزي، أما أن تقع المعلمة، فهذا لا يعني سوى خرابها، إن كنت تحنين إلى أبناء، فلاشيء يمنعك من تبني يتيم أو أكثر.

ارتمت عليه، عانقته. لا يزال يحبني كيونه لا يفتأ يفكر في، يرعاني في جميع الظروف والحالات.

- ابحث لي عن طفل وطفلة يا الحاج، وسأكون أما حقيقية. ستتولى أنت تهريب الأموال والهدايا يا حاج.

- لا. لا تحرجيني. ورائي مهام أخرى.

ارتفعت القصبة، متأوهة. علت الزغاريد. تلثم المغني بشاشه. تراقصت أصابعه على البندير، انطلق يذرع البهو الفسيح، تواصلت الزغاريد، برزت الأجساد الرشيقة تتلوى شبه عارية.

- بات. خويا بات.

- هذه ألف ميتة من عند صاحب العصا، على رأس العنابية، وكل المعلمات، وعلى رأس حياة النفوس وحدها، وعلى رأس الزغاريد إذا حيوها .

أعلن الشياد[21] عن المبلغ الذي افتتح به القروي الحفل.

سرت حياة النفوس أيما سرور. إنها أول من يذكر اسمها، وسط كل هذه الجميلات اللاتي قدمن من مختلف الجهات. سرت العنابية أيضا لحضور هذا القروي، فرغم أنه كان سلم عليها، فإنها لم تنتبه إلى وجوده سوى الآن، مع أنها تعلق عليه، أهمية كبرى. لقد دعته بإلحاح، وطلبت منه أن يحضر هو وأصدقاؤه، خشية أن يحاول خاتم الهزية الانتقام منه، فطمأنها، إلى أن خاتم الهزية هذا، لا يعني بالنسبة إليه سوى ولد صغير مشاغب تؤدبه العصا بسهولة.

- تعال هنا يا صاحب العصا تعال. كنت أبحث عنك.

طلبته حياة النفوس. التفت الجميع إليها، كانت ساحرة. ساحرة بحق. أكثر الحاضرات لطفا ورقة، وأكثرهن، جاذبية وإثارة لرغبة التواجد قربها. ليس فيها شيء، من ملامح نساء المواخير. الطيبة والبراءة وحياء العذارى، في بسمتها. لم يخطئ من أطلق عليها هذا الاسم، حياة النفوس.

فكر الجميع. شعرت أنها محط الأنظار والإعجاب، تورد وجهها لسبب ما.

صدحت القصبة، بلحن عال، رفع المغني البندير إلى وجهه، يرد الصوت، ثم راح ينادي من سويداء قلبه، *يا جبل بوخضرة، يجيك الطليان ويكسر حجرك* .

- المعلمة كلفتني أن أطلب منك إن جئت مع أصحابك أن لا تتركوا الهزية يفسدون عرسها.
- وأنت ماذا قلت؟
- ماذا تريد أن أقول؟
- هل تتزوجينني؟ أنت يا حلوة الحياة لم تخلقي لهذا المكان.
- ما دمت خلقت للرجال، فأنا هنا أو في مكان آخر، امرأة. ابق أنت معي هنا أفضل.
- إنني جاد في عرضي يا حلوة الحياة، ولا تنسي أنني لا أتردد عن اختطافك بالقوة.
- بعد العرس يعمل الله طريقا.
- بات يا ولدي بات .

[21] -الشياد من يقوم بإعلان النقود المعطاة للمغني الذي قد يقسمها مع أصحاب العرس، حسب الاتفاق. الإعلان يكون بعبارات محفوظة منمقة فيها مدح للمتبرع واستفزازه لغيره. وفي الفصيح، شاد أو شيد للبنيان وللصلى، وللتضميخ بالطيب.

- طمئني العنابية. قولي لها، صاحب العصا وجماعته، مستعدون لحماية حلوة الحيـاة ومـا تبعها.

- هذه ألف ميتة، من عند النايلي، على رأس، العنابية وصـاحباتها، وعلـى رأس ياسـمينة البليدية، وحدها. وعلى رأس الزغاريد، إذا زهاوها.

انطلقت الزغاريد. امتلأت نفس العنابية بالرضى، خيل إليها، أنها سيدة، أم رجـال، وصـبايا، مراحها عامر بالأغنام والأبقار والرعاة.

برزت ياسمينة البليدية إلى البهو، عندما أعلن عن اسمها. كانت ربعة، ممتلئة، حيوية، مرحة، مثيرة.

راحت القصبة، تستميت في التعالي، وقف المغني على رجل واحدة، مسندا بنديره إلى رأسـه، وواصل *واش نهدي لخالي . بزولي ولاّ رقدة عن طولي؟*

تواصلت الحفلة الأولى من العرس، عم الانسجام الجميع، كانت قـوارير البيـرة، وكـؤوس المقطرات تتسرب بقوة وبسرعة. كانت الدراهم تتهاطل بالألف، كلما فتح المغنـي فـاه. وكانـت العنابية وخاتم الهزية ومساعداه، والمغني وقصابه، وآخرون، يعدون كل من جهته. وكـل بـدافع معين.

- ثلاث أو أربع ليال هكذا. استعيد الفيلا أربع مرات. ليس ضروريا أن أهرّب الدراهم إلى الخارج كما أوصى الحاج. إنما أضعها كلما تجمعت في الخزانة الحديدة، مع المجوهرات والحلي. الجو حسن على ما يبدو، ثم إن الاحتياطات المتخذة، كافية. الحماية المتوازية التي نصبتها تكفـي. صاحب العصا وجماعته من جهة. خاتم الهزية وجماعته، من جهة. كل هزي جاء في وفد كلـف من جهته بالحماية. ثم ماذا؟ في آخر الأمر، هناك الشرطة. إنني برخصتي، وبسـجلي التجـاري، وأدفع الضريبة. إذا لم تحمني الشرطة، فلماذا هي موجودة؟

الباطن والظاهر

عندما وجد الحاج كيان نفسه خارج الباب، بصق خلفه، كان الشعور بالتفاهة والحقارة، يمـلأ قلبه. البضاعة في الداخل، مكدسة، شرائح شرائح. لا أحد يشعر بعفونتها ولا بنتانتها، ما دامت تدر نقودا فهي جيدة، لا شيء رديء في هذا العالم إلا ما ليس له قيمة تجارية.

تفوه. تفوه.

قصد رأسا المستشفى حيث الأطفال يختنون. كانوا صفا طويلا مع آبائهم وأمهـاتهم وبعـض ذويهم، بعضهم يبكي وبعضهم يضحك، الكبار كلهم يضحكون. الأكياس والرزم في أيديهم.

يتعشون الليلة، كسكسا بالدجاج. يشبعون كلهم، لحما ومرقا. بعضهم سيثني على المحسـن أو المحسنة، بعضهم سيثني على جميع الأغنياء المحسنين.

ستنبعث الزغاريد من أربعين بيتا في حي الفقراء، معلنة أن الكسكسي بالدجاج يعد للعشاء.

فرح صاحب الحشيش الواقف قبالة الصف، ممسكا قائمة الأطفال المتفق علـيهم، عنـدما رأى الحاج كيان. ناداه، قصد إليه بخطوات متثاقلـة، سـلم عليـه، راح يحـاول أن يعطيـه الأرقـام والحسابات، والتكاليف.

- لا. أرجوك لا. كل ما تفعله جيد وحسن.
- أريد أن أقول إن هناك أربعة آلاف بقيت زائدة عن الحساب.
- لا يهمك. أصحابنا لا يحاسبون عن الأربعة آلاف. اشتريها حلوى الترك !.

التفت موليا بسرعة، ولم يكد يقطع خطوات قليلة، حتى وجد نفسه يبصق.

ما هكذا أراد حمدان أن يقرمط بين الناس. هذه قرمطة زائفة، وطريقـة انتهازيـة للعطـاء، وللتلقي. تفوه. تفوه.

أسرع إلى محل صاحب الحشيش، طلب سلته من الغلام وأمّ المقبرة.

كان الجو ثقيلا، مشحونا بالحرارة والذباب. شعر بالإرهاق في الطريق.

كثرة الزيارات والجلسات، جعلتني أتعرض للإرهاق بسرعة. عندما أكون في الداخل، أنسى التعب. لعلني أكون هذا المساء هارون الرشيد. قد أكون بن السعود أو بولغانين. لماذا هربت من الأعراس، من الغناء والطرب والقهقهات الرنانة، ومن الفرحة على وجوه الفقراء وجئت إلى المقبرة؟

لاشيء من الأعماق. كل ما هنالك عرس بغل، أعراس بغل في حجم الكرة الأرضية. كلهم، كلنا. نهرب إلى مقبرة، كل من فيها ميتون إلا نحن. الحياة. حياة الآخرين المرتبطة بحياتنا، لا تهمنا. لا تهمنا إلا بقدر ما تكون مقبرة. لا. لا. هذا كلام لا معنى له. كلام غير مستقيم، يمليه التعب.

ها أنك قد وصلت. أهلا وسهلا بك في مدينتك، يجدر بك أن تكون أفلاطون هذا المساء. قد أكون من يدري؟

الرائحة تنبعث. الحمار المسكين مات. ذباب الموت استعاد نشاطه، بعد أن جفت عظام الأموات هنا.

تأمل الحاج كيان كالعادة، الوضع وهو عند الخق: السماء صاحية، الريح جنوبية شرقية. في الأسفل كل شيء على ما هو. لا جديد.

أنزل السلة. تسلق أغصان التينة. نزل إلى الصخرتين، ثم إلى القعر. أسرع إلى مغارته الصغيرة بين الصخرتين، بسط أدواته. ملأ غليونه، أضرم فيه النار. تصاعد الدخان، علت الابتسامة شفتيه، انشرح صدره.

لو أن نيتها صادقة. العنابية، لو أنها ما كانت تكون معلمة. تستمر معلمة على الأقل. لكن لابد من معلمة، لابد من واحدة، تمتلك أو تسير الماخور. لابد من عاهرات، ومن هزية، ومن زبائن؟

العنابية إذن صادقة، فيما تفعل. إنها تفعل ما يفعله جميع الناس، بشكل أو بآخر. تبيع الخبز، أو الحشيش، أو الجنس، أو الموت، أو حلوى الترك.

الأمر سيان. هذا هو النظام.

وأنت في كل ما تفعل، إما مسلم أو مسيحي أو يهودي، أو بلا دين. الأمر سيان.

لا أحد يقول هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، ولا أحد يشرح وما غنمتم من شيء فله خمسه أو يحاول إقامة الألفة. حمدان قرمط لا يُذكر إلا باللعن، وكل ما هنالك ظاهر بلا باطن. أعـراس البغل فقط، لها باطن وظاهر.

الرحلة بدأت.

هات البُلغة يا حمدان قرمط. إن لم نتقرمط بين الناس فلا أقل من أن نتقـرمط بـين ظاهرنـا وباطننا.

لا أريد خولة اليوم، الماخور مليء بالخولات. وبالمتنبيين أيضا. أريد براقا، يستطيع في ثوان أن يحد الفضاء.

هنالك نسيت ذات مرة، بسمة صادقة، أريد أن أتأملها لحظة قصيرة وأعود.

البراق لم يحضر. الأبعاد تتشكل، السماء ترقص، الأرض ترقص. عرس بغـل يقـام عنـدي أيضا. آه، لقد بدأ المدعوون يصلون. أهلا أهلا.

- أنا شمس الدين محمد. حافظ. حافظ القرآن.
- أهلا أهلا. وكيف لم يعكس شعرك فعلة جلال الدين شاه شجاع بأبيه. أيعقل أن يوجد شاعر في ظل ملك سمل عيني أبيه وألقى به في السجن؟
- أنا كنت أتغنى بالربيع وبالجمال وبلذة الحب. كانت روحي متصلة بالفضاء الأرحب.
- كنت في عرس.
- نعم في عرس.
- عرس بغل ما في ذلك ريب.
- وما الحياة سوى ذلك؟

حدثت ضجة في الأعلى، قطعت عنه الرحلة، شعر بخوف شـديد. خشـي أن تكـون الأرض زلزلت. سقط الغليون من يده. لم يرفعه. ظل ينصت، وقلبه يدق بعنف، وأوصاله ترتعد بشدة. ماذا هنالك. هل داهمت الشرطة المقبرة؟ هل خاتم الهزية السافل، وشى بي. لا، لن أذهب إلى السجن.

كانت الضجة تتواصل. لم يتمكن من تمييزها.

هذه ضجة ظاهرة وليست باطنة. إنني أسمعها ولا أعيشها. لأطل. لأر ما هنالك.

نهض. لم يتبين شيئا. الخق أطول. تمسك بأغصان التينة، صعد على الصخرتين. لفحته نسمة. لا يدري من أين فلتت في هذا الجو الثقيل. لم يتبين شيئا. الضجة في الأسفل. لأصعد. الخق. لأول مرة تدب الحياة في هذه المقبرة. وجد نفسه في الأعلى. التفت إلى القعر، بان له أبعد مما كان يتصور. لا يستطيع أحد النزول إليه إلا بسلالم وحبال.

أكنت حقا هنالك؟ ما هذه الضجة يا ترى؟ لم يتبين شيئا. إذا ما تقدمت أكثر تجلت لي.

وتجلت له.

عدة أسود تتقاتل على جثة فيل ! في أي عالم أنا يا ترى؟ لفحته نسمة أخرى، شعر بشيء من الحيوية تدب فيه. تأمل الأسود والفيل. كانت تصغر وتصغر. بدت له نمورا، عند جثة بغل، ثم كلابا عند جثة حمار.

ابتسم. الحمار المسكين، ماذا فيه يؤكل. مع ذلك الكلاب منكبة عليه بكل حماس. لم يفكر في الالتفات إلى الخلف، جرته قدماه إلى الانحدار. فكر أن يحمل حجرة يرمي بها الكلاب، إلا أنه لم يجد الفرصة لذلك. كان قد غادر المقبرة. وكان الوعي قد بدأ يعاوده.

العنابية في حاجة إلي. الوهرانية أيضا. حياة النفوس كذلك، كل البنات في حاجة إلي. ما دام العرس مقاما، فلابد من حضوره. كل الأعراس، عرس بغل، ولا داعي للهروب منها.

هذا هو نظام الحياة. إنه فاسد في أساسه، وفي حاجة ملحة إلى حمدان ليقرمط بين الناس ويقرمط، حتى يقيم الألفة، ويذيقهم جميعا طعام الجنة.

سأنتظره هناك، وسأكون عبدان، بل زكرويه بن مهرويه الدنداني.

التفت الحاج كيان إلى الخلف. بصق ثلاث مرات، ثم واصل الانحدار. كان في الأول، محني الظهر، حذر الخطو، ثم بدأ يستقيم، ويسرع في المشي، شيئا فشيئا.

سأرقص. أرقص لهم ولنفسي. أرقص مع العنابية وعلجية وحياة النفوس والوهرانية، رقصة *جيناكم زوار قاصدين الدار. على الباب الشرقي...* بل، سأغني، سأنتزع البندير من المغني، بعد أن أضع كأس بيرة بين يديه، وأغني أغنية عيسى الجرموني: *عينيك والشمس بي الاثنين طلبوا هلاكي* سأسحرهم بصوتي كما سحرت شيخ التجويد.

بدأت الزغاريد تقوى كلما تقدم إلى الأمام، وبدأت البهجة تعود إلى نفسه كلما تصور أنه سيغني. ينبغي أن لا تعدم الحياة شمس الدين محمدا، إذا ما عدمت حمدان القرمطي. حتى وإن سمل السلطان مليون عين.

تسابقت الوهرانية وحياة النفوس نحوه. هاتفتين:

- عاد. عاد الحاج كيان.

أمسكتاه من يديه وقادتاه إلى البهو.

- هذا الحاج كيان الذي كانت الوهرانية قد أماتت عشرة آلاف كاملة باسمه.

قالت حياة النفوس، في حين تقدمت العنابية منه. قربت وجهها من أذنه، كأنما لتهمس له بسر، ثم صدحت بزغرودة حارة، اهتز لها قلب الحاج كيان.

التبخر

سأجند أربعة أو خمسة. أقتحم بهم المحل، كل واحد يقف في باب، شاهرا خنجره، أتقدم منتفخ الصدر إلى المغني، أضع يدي في قلنسوة برنسه، أخرج ما هنالك. أوزع على أنصـاري النقـود، أزأر: إن كان هناك من لم يرق له عملي هذا. من له اعتراض أو رأي آخر. إذا ما تكلـم خـاتم الهزية، أو حاول التدخل، أحمله من صدره بأصبعين اثنين، أصفعه صفعتين، ثم أمده إلى واحد من مساعدي، يفعل به ما يطيب له. إذا حاولت العنابية. أو غيرها، إثارة أي مشكل، نطفئ النور، نهجم على من يصادف، نجرد النساء من حليهن وننطلق بعد أن نخاف مندبة وننصرف. ننصرف، بعـد أن آخذ معي حياة النفوس.

هكذا تتعلم العنابية، معنى طرد حمود الجيدوكا من محلها، بعد أن خدمها مدة طويلـة بنزاهـة وإخلاص.

ظل حمود الجيدوكا، يقرر، وهو في طريقه إلى مشرب عصفور الجنة. متجاهلا المرأة التـي بات معها، في عرس حزين...

لا، ذلك لم يكن سوى حلم. كابوس مزعج لا غير. أنا ما بت هنا إطلاقا، بل، إنني لم أجيء إلى هنا سوى اليوم.

ملأ مدخل المشرب بجسمه المترهل، استقبلته رائحة البخور، تساءل:

- أنت هنا يا عصفور الجنة.

لم يجبه أحد. قصد كرسيا، كان يشعر بحاجة قوية إلى الجلوس.

- أنا قادمة. أنا قادمة.

أتاه صوت نسائي من الخارج. عجب للأمر، أين يكون عصفور الجنة يا ترى؟ أيكون المسكين مريضا؟

- أهذا أنت؟ لم أر وجهك. لماذا لم تسلم وأنت مار؟ كيف أنت؟

قالت المرأة محتجة، ثم انحنت تطيل عنقها نحوه. فهم أنها تحييه تحية عائلية، وأنها كانت قلقة من أجله.

- كيف حال رأسك؟
- بخير، على ما يرام.
- البارحة غصت بسرعة. يبدو أنك غير متعود على الرحلات الطويلة.
- لا الطويلة ولا القصيرة. أنا رياضي. تعودت الوثب والقفز، والنبيذ الأحمر.
- ستتعود بسرعة الرحيل معنا، وستكتشف كل ليلة جديدا. هاك سيجارة كمال .
- وأين عصفور الجنة؟
- في العرس يا سيدي. في عرس بغل، أرسل إليه الحاج كيان والعنابية يدعوانه. استدعتني بدوري، لكن قلت لها: *لا يأكل قيئه سوى الكلب*.
- ولماذا ذهب عصفور الجنة؟

ضحكت المرأة متعمدة أن تكشف عن أسنان فمها الذهبية، وغمزت بعينها:

- عصفور الجنة، كل ما يحيط به جنة. يعينهم. ويصرف بعض بضاعته يا حمود.
- ألا يخاف؟
- وممن؟ إنه يشتغل معهم أيضا. عصفور الجنة، وكيل رسمي لجميع الهيئات والمؤسسات والتجارات. حتى للجنة هأ هأ.

تفاقمت رائحة البخور، بدأ الانسجام يعود شيئا فشيئا إلى ذهن حمود الجيدوكا. فكر أن كل ما هو خارج المشرب بعيد جدا، أبعد من الواق واق، ومن الثلث الخالي، وأنه ليس هنالك أي دافع، في مثل هذا الوقت لمحاولة الخروج. إن الغرفة المظلمة، المعطرة بروائح البخور، تعمق شيئا فشيئا، وكلما عمقت شدته إليها أكثر.

السيجارة خفيفة نوعا ما، لكن الرحلة تبدأ جميلة. هادئة وجميلة. تبدأ كالنقاهة من حمى لازمت شهرا كاملا بأيامه ولياليه.

- لقد سأل عنك أيضا.
- من سال؟

مبعوث العنابية. قال إنها قلقة عليك.

- ضربتني بالهراوة على قفاي. قضيت ثلاثة أيام في الفراش مصروعا. ضربتني من أجله.
- المشقة صعبة يا حمود يا خويا.
- صعبة.

انهمرت الدموع من عينيه. أفسح لها المجال.

تتحمله تسعة أشهر. تشعر نحوه بالحنان طيلة التسعة أشهر. تجسه ألف مرة في اليـوم. ليلـة المخاض تستسلم للموت. تموت وتموت حتى يبرز صارخا، ترضعه، حتى يشبع، تقبله، تلثمه. يدق قلبها وتبكي. تغمض عينيها، وتضع كفها على فمه وأنفه. يتخبط ويتخبط. لا يموت. تمتـد يـدها الأخرى إلى عنقه. يستسلم. تضرب خديها، ثم تلفه وتسرع به إلى برميل القمامة. في الغـد يلقـى عليها القبض، ترسل إلى السجن، لتظل تتحسر.

هذا قدرها ونصيبها. قدرنا ونصيبنا جميعا.

- وحد الله واستغفره يا حمود.

فتح عينيه. كانت تناوله السيجارة بعد أن سحبت منها نفسا قويا. تأملها. يا حياة النفوس، لـم لا تكونين معي، إلا وأنت طيف. تريدين أن أتحول أيضا إلى طيف. لحظة وآتيك.

ها أنني معك، هيا بنا. هيا نسبح في الأفق الرحب، خاف نجوم الحرير الوردية.

- أنبقى هنا، أم نذهب إلى الدار؟
- كما تشاءين.

سقراط يفسد حسابات خاتم الهزّية

عند منتصف الليلة الثالثة، وقف خاتم الهزية في البهو، وأمر الجميع بالسكوت والإنصات إليه:

- اسمعوا. نريد حياة النفوس. لن ترقص الآن سوى حياة النفوس. اسمع يا شياد. هذه عشرة آلاف ميتة على رأس حياة النفوس.

دهش الجميع، خاتم الهزية الذي لم يظهر طيلة اليومين والليلتين، إلا بمظهر العاشق المتفـاني في حب العنابية، يصرخ الآن متحديا، يطلب حياة النفوس.

- البنت تعبة، لم تسترح ساعة واحدة منذ بدأ العرس. ماذا تريد عندها؟

قالت العنابية، مكشرة، فأضافت حياة النفوس:

- أنا مريضة. جسدي كله ميت. أنا لا أستطيع.

- لا. حياة النفوس، يجب أن ترقص.

هتف خاتم الهزية، راح الجميع ينظرون إلى بعضهم. هذا استفزاز وليس طلبا. الولـد جـن، نهض القروي، تقدم بعصاه، ووقف مترنحا:

- حياة النفوس لا ترقص. ومن لم يرقه ذلك، يرقص هو بنفسه.

- أتتحداني يا مغفل. معي هنا عشرة مساعدين.

لاءم الفتى القروي ذراعه ويده مع العصا، وراح يتخير من أين يبدأ. إذا ما ضربته عند الدماغ يسقط ميتا حالا. إذا ما ضربته في القفاء يفقد وعيه. المعركة يجب أن تطول. جولة واحدة ويسقط.

وثب اثنان من مساعدي خاتم الهزية. أمسكاه بقوة من ذراعيه، وراحا يدفعانه خارج الحلبة.

- أنت سكرت. أهذا هو اتفاقنا؟

- لا لم أسكر. دعاني. لم أسكر. أريد أن أقول للعجوز الشمطاء، العنابية، إنني لم أعد لهـا، منذ هذه اللحظة.

صعقت المعلمة. ترنحت. أسرع إليها الحاج كيان وبعض النساء. همس الحاج كيان في أذنها:

- هذه هي الخطة على ما أفهم. سيحملونه إلى جناحك، وهنالك يستدرجك إلى فتح الخزانـة، لكن لا تكترثي، لقد رتبت كل شيء، حسب توقعات مضبوطة.

- هاتي يا المعلمة المفتاح، يجب أن ينام.

قال أحد مساعديه، فردت المرأة:

- لينم في الشارع.

- إنه خاتم الهزية يا معلمة.

قال الآخر. في حين تمتم خاتم الهزية:

- يظهر أنها أدركت المسألة: إنه سقراط صقر الكلاب. مُرْ الجميع بالشـروع فـي العمـل، سنجبرها على أن تناولنا كل ما عندها..

- لماذا لا ننتظر ليلة أخرى؟

- الليلة وإلا فلا. غدا ينصرف معظم المدعوين، ثم إن صقر الكلاب هنا.

- إن لم تخرجا به، طلبت الشرطة. لا أريد مشاكل أطفال عندي. محلي محترم.

أضافت العنابية، في حين رفع القصاب أنغامه، يدعو إلى رقصة جديدة، لتسرع حياة النفـوس إلى الحلبة، وترمي الشال الوردي الذي كان على كتفيها.

اتجهت الأنظار بسرعة إليها. كانت بحق وللمرة المائة التي تظهر فيها على الحلبة، أجمل من يضم العرس. القوام. العنق. العينان، اللون الأبيض الضارب إلى الحمرة. الحيوية الفائرة من كامل جسدها المتماسك القوي. أكثر من كل ذلك، البراءة الطفولية التي تطفح من نظرتها ومن بسمتها.

- يا روح يا روح. روحي.

هتف أحدهم، فتشجعت، وراحت تغالب الإجهاد الذي يعتريها. الرقصة خفيفة، تتطلب حركـة سريعة من الجسم كله. الانتقال رشيق وسريع، اليدان تظلان مرتفعتين. الصـدر، يحـافظ علـى الاهتزاز القوي، الخصر والكشح، يلازمان التلاوب ومجاراة حركات الجسم بكامله.

لقد رقصت أكثر من مائة مرة منذ بداية العرس. لم تكن تتعب على كل حـال، ذلـك أنهـا لا تطيل، ولكن الرقص إلى جانب استقبال الطابور الواقف عند الباب شيء مريع. استقبلت أكثر مـن مائتي رجل. شيء، فظيع، لم يحدث في تاريخ امرأة قط. كل ما فيها ممزق أو ميت.

ماذا يريدون عندي؟ بم أمتاز عن باقي النساء. لا كنت ولا كان الجمال. ولا كانت الرجال. غدا أقول للفتى القروي إنني موافقة، أشترط أن نقطع العالم في قطار. نظل ونبيت ونصبح في القطار، سائرين، دون حاجة إلى نزع ثيابنا، أو إبدالها، أو إلى الاستقرار في فراش واحد زمنا طويلا.

- قلت لكم الآن أو فلا، دعاني، وانصرفا إلى مركزيكما.

أصدر خاتم الهزية الأمر، ثم تخاص من مساعديه، وأسرع إلى البهو حيـث تقـف العنابيـة، وبعض النساء.

- بيت ، أسكتهم وإلا طعنتك.

أصدر الأمر للشياد الذي لم يجد بدا من الهتاف:

- بات يا ولدي بات.

سكتت القصبة، هدأ البندير، توقفت حركات حياة النفوس. تنفست من أعماقها. التفت الجميـع إلى الشياد منتظرين، الإعلان، عمن قطع هذه الرقصة الجميلة الربانية، بطريقة غير لبقة. كان في الإمكان وضع المبلغ بين شفتي، الراقصة أو في حزامها.

- اسمعوا. القاعة ممتلئة بنا. هذه خناجرنا، وهذه أسلحتنا. كل ما نطلبه، هو أن يضع الجميع، رجالا ونساء، كل ما يمتلكون من نقود أو حلي، بما في ذلك العنابية. وخزانتها، وما جمعتـه منـذ أول أمس من مال وذهب.

لم يكد خاتم الهزية يتمم عبارته، حتى هوت الهراوة على قفاه بضربة قويـة. تـرنح، سـقط. برزت جماعة متفرقة هنا وهناك، تحمل العصي والهراوات، بينما برزت جماعة أخـرى، تحمـل الخناجر والمسدسات.

- المسألة كما قدرت.

قال الحاج كيان، ثم أصدر صرخة كان اتفق عليها مع جماعة أخرى. برز عدة رجـال فـي ألبسة مختلفة وراحوا يطمئنون الجميع.

- كل شيء مرتب على أحسن ما يرام. لا تخشوا شيئا. أنتم في الأمان التام.

انطفأ الضوء. ارتفع الضجيج. ارتفعت صيحات هنا وهناك. انطلقت رصاصة، تشق الظلمـة، امتلأ الشاعر بصفارات الإنذار.

بومرداس في 12- 9- 1975..